صمت الحياة

صمت الحياة

زكرياء تاوريت

الجنس: نصوص

سنة الإصدار: 2020م.

الترقيم الدوّلي:978-9931-11-016-3

الإخراج الفني: بعطوش عبد القادر .

يوتوبيا للنشر والتوزيع.

شارع عبد الجبار بن علي- عين الحديد- تيارت- الجزائر.

الإشراف العام: بعطوش عبد القادر

المدير العام: دحام فتيحة.

الهاتف: 046300433 - 0657142322

البريد الإلكتروني:

yotoubia@gmail.com



صمت الحياة

نصوص

زكرياء تاوريت

إهداء:

إلى الوالدين العزيزين اللّذين طالما آمنا بأنّي في الطّريق الصّحيح

وإلى خطيبتي الدّافع نحو النّجاح..

مقدّمـــتي:

السّلام عليكم كلّما طاب السّلام، وكلما حضر وغاب، وإنّ السّلام لنفس عميق، واسم من أسماء الله العظيم المنان، سلام يطمح الإنسان لأن يبلغه، فلا يرتجيه إلّا بالحرب والعنف، ولا يجده إلّا بالألم، وأنا أبحث عن السّلام في أخبار النّاس، تتراشق الكلمات في الأفواه وتتغنّى العبارات بقصص مختلفة في شتّى المواضيع، حبّ وتاريخ ودين ودنيا، الكلّ يسير ولكن هناك من لديه معنى لسيره وهناك من هو يسير لأجل مسمّى فقط، ولهذا اخترت عنوان هذا الكتاب باسم صمت الحياة، ولأنّي رأيت فيه حقيقة البؤس وحقيقة الشّقاء، فقد لمعت الألم فيه بأنواع الملمّعات وحاربتها بكل تفاؤل حتى تزول، فصمت الحياة هي قصص وحكايات بعضها صحيح والآخر وهم لكنّه موجود على أرض الواقع، ولعلّ الحقيقة تكون مخلوطة ببعض الوهم حتى لا نكشف بعض الأسرار التي لا يجب أن تُكشف لكلّ النّاس، فنقصّ ما يجب أن يعرفوه، ونغضّ الطّرف عن ما لا يجب أن يعرفه الآخرون، وأنّ من المواضيع التي أسرتني وجعلتني أشقّ صدري أرقب ما فيه، هو الاحتلال الغاشم لأرض الجزائر والذي عاث فسادا في أرضنا و خرب الدّور، وقتل النّفوس، وزجّ الكهول والنّساء في السّجون، احتلال

أقلّ ما يقال عنه أنّه مجرم، ولكن لن يفيد السبّ والشّتم، واللّذع والقذع ولن تفي الكلمات المراد ولن تحرّك إلّا الألم فينا وأخذ الثأر، ولهذا يجب علينا أن نكون أوفياء لشهداء الوطن ونحرّر الجزائر من تبعيتها، ونعتني بأنفسنا ولن نحتاج لمن يعتني بنا، عائلة الشيخ بلقاسم تبدأ هذه الحكاية المتخيلة وتروي قصة المجاهد المقدام الذي أرخص الحياة فداء للوطن، ولم يرد جزاء ولا شكورا بل كانت فرحته في أن يرى الأطفال في الأحياء يعيدون بأمل ويلعبون بكل سرور.

ولمّا بدأت بقصة محتل غاشم أنهيت كذلك بقصة فتاة تعايش الاحتلال ولكن في بلد آخر، بلد الكل فيه مسافر في أي لحظة، قصة مها، قصة الفتاة الفلسطينية التي تحب الوطن وتحاول جاهدة أن تكون الابنة البارة والمتعلّمة الجادة، وبما تحمله كلمة فلسطين من معنى لنا نحن العرب ونحن الجزائريين فإنّ القصص الوهمية إنّما هي نبع من ذاك الحب، لم نجد إليها موئلا فصرنا نتخيل الوضع، ونجول في أزقة الخليل وجنين وطولكرم ورام الله نصلي في الأقصى ونشاهد كنيسة القيامة جنبه، نعانق أهل غزّة ونحييهم، إنّها فلسطين عزة من عز ومذلة المحتل.

وقد توسّدت في الكتاب حكايات عن عشاق هاموا في لوعات الحب وناموا على خيوط العشق، ينسجون وَلَه الكلمات و يعبرون بمختلف العبرات، دموع حب طاهر، وألمٌ زكيّ نقيّ، لا يرجو إلّا يوما لقاء صفيّ، بعقد ميثاق عظيم، حكايات سمعتها وشهدتها، وألممت برسمها في هذا

الكتاب حتى يعرف النّاس أن الحب ليس أبدا جسدا له خوار، وإنّما هو العلاقة التي تجتمع بالمودة والرّحمة، لن يسمع من كان قلبه في غنًا عن الطّهارة، ولكن سيسمع من كان يريد في الحياة الدنيا إلّا خيرا.

ولعل قصة اليتيمة قصة كتبتها بكل حسرة، ورأيت ما فيها من حسن صنيع القادر، وسلامة القدر، إنّ قصة اليتيمة ليست كما يبدو كلها أسى، ولكن الشّدائد والأحزان تصنع الرجال، تصنع الأمهات وربّات البيوت، وذاك ما حدث لليتيمة، وقد اقشعرّ بدني في ليلة من ما سيحدث في ليالٍ قادمة في ظلمة اللّحد وغطاء الكفن، من لقيا منكر ونكير وأسئلتهما، لذا كانت قصة الميت من الرّواية ونسج في الحكاية، والموت حق أعجز العلماء وصكّ أفواه الملحدين، وبعد كل هذا لم أنتهِ من كل القصص والرّوايات، وقد اختفت بعضها وسأوردها إن شاء الله في

ما قدم من الكتب إن كان ذلك في ما سُطّر من قدري، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

عائلة الشّيخ بلقاسم

في ضواحي مدينة الجزائر، حيّ بائس يعضه الفقر والشّقاء، على جدرانه يترنم صوت الحزن والأسى، وعلى أبوابه يخدش صفحة السكون، مناديا في كل سور وعلى كلّ سرير يا من لا مواسٍ لكم أنا أواسيكم يا من لا غني لهم أنا أغنيكم، وسط هذا الزّخم كان الطّفل بلقاسم ذو الخمس سنوات، والذي قد عمّ صياحه دروب العاصمة حين ولد، وصرخت رصاصته في وجه الفرنسيين حين كبر، لقد تربّى في كنف الجهاد ضدّ العدوّ فكان أبوه شهيدا، أمّا هو فقد استبسل في مواصلة الكفاح حتى استقلّت الجزائر عن مريدتها، رغم الموت المحيط به آنذاك إلا أن موته سهم أخطأ هدفه.. مرّت السّنوات وكأنّها شهور، والشّهور وكأنّها أيّام، ولأيّام تمرّ مرّ السّحاب على بلقاسم.

تزوّج بلقاسم فتاة قروية فقيرة، عرف عنها أنها كانت مطيعة لربها كثيرة الشكر له، وعاشا حياتهما وأنجبا خلالها ذرية تعينهم على مشاق الحياة، لقد رأى بلقاسم أمّ أبنائه السيدة نادية في سوق المدينة الأسبوعي لقد كان يوم الأربعاء حين انفصلت عن أمها لتشتري لنفسها حاجة تخصها، رآها فتبعها إلى أمها، فلم يزل يتبعهما حتى وصلا إلى بيتهما.

حينئذ عاد إلى بيته والأمر واضح بين عينيه، و في مساء اليوم التالي قرر الذهاب لخطبة من شغفته حبا، فتفنّن في لباسه وتألّق في هندامه وحمل الحلوى بيمينه، واتّجه صوب بيت السيدة كريمة أم نادية، وما هي إلّا لحظات حتى وجد نفسه يدقّ باب بيتها. لقد كان متوترا ومضطربا حتى أنّه كان لا يسمع إلا خفقان قلبه، وكان قلبه يرجوه ألا يتحامق رغم أنّه يفعل الصواب.

فتحت السيدة كريمة جزءا من الباب وراحت تستطلع بنصف عينها من وراءه، من يطرق الباب؟ ومن ذا الذي يأتينا الآن؟ بابتسامة خجولة وكلمات مرتعدة، يسلم بلقاسم على الحاجة من وراء الباب: "السّلام عليكم يا الحجة أنا دلال خير جئت أطلب يد ابنتكم على سنة الله ورسوله". بكل اندهاش وغرابة وتوتّر واضطراب تعيد الحجة كريمة إغلاق الباب في وجه بلقاسم، وتجري إلى الداخل، نساء الجزائر يستحيين حتى من الجار فما بالك بجندي من الاستدمار، فجأة! فُتح الباب على مصراعيه وخرج شيخ ظاهر من وجهه أنه عانى كإخوانه الجزائريين، وبسقطات نور على هذا الوجه، يوجه سؤاله إلى الفتى المغمور، التائه في غيابت الحب، وبنبرة الرّجل الرّشيد الشّجاع الصّنديد، وكأنه يقول: "نحن أمس طردنا فرنسا من الجزائر ولم نقبل أي غريب حتى من أبناء جلدتنا أن يمس بيتنا" لكن هذا الجزائريّ إنّه السّي سليم يسأل بلقاسم بكل رحمة: "من أنت؟ وماذا تريد؟" فبهتّ بلقاسم وتجمّد في مكانه، وقد

سرقت من لسانه كلمات التّعبير عن ما يريد فتأتأ برهة وصمت، لكن السّي سليم كان شابا في خضم أزمات الجزائر، فحاول أن يهدأ من روعه، وبلطافة ردّ عليه السلام بلا سلام من بلقاسم، هنالك فقط أحسَّ بعودة الروح إلى جسده وكأنّ نفسه ضاقت وبدأ يحدث نفسه: "ربّاه ما أتى بي إلى هنا؟ ماذا أفعل؟ هل جننت؟" ولكنّه ردّ على السّي سليم" يا سيدي جئتكم حتى أخطب ابنتكم على سنة الله ورسوله" تبسّم أبو نادية وأدخله المنزل أجلسه وأحسن ضيافته، تبادلا أطراف الحديث فأحب أبو نادية بلقاسم وأرتاح له، وعرف بلقاسم أنّه وجد أبا له لا نسيبا. وبينما السّي سليم يحدث بلقاسم حتى وصلا إلى عقدة اللّقاء، وطلب سي سليم من زوجته الحجة كريمة أن تسأل ابنتها بإيماءة منه، ففهمت الأمر وانصرفت إلى ابنتها التي ظلت في ركن من المطبخ، تنظر القرار الذي سيفصل في أمر حياتها، إنّها كمجلس الأمن يجتمع عشية يدرس قضية الجزائر، أثورة شعب هي؟ أم أزمة فرنسيّة داخليّة؟ لكن الأمر ها هنا يختلف فلا حصار ولا رشاش بل سؤال وجواب، فالزواج حرية، إنّه أرقى ما يفكر فيه الإنسان من كافة النّواحي، بكلّ حياء وأنوثة نظرت نادية إلى أمها وتبسّمت، احمرّ وجهها استحياء حتى من أن تجيب أمها، حينئذ قامت الأم تزغرد، فزاد خجل نادية، أمّا بلقاسم فتبسم محمر الوجه والشيخ سليم يضحك وهو يطالب بلقاسم بحفظ ابنته فهي أمانة في عنقه، ظلّ بلقاسم طول أيام الأسبوع يجري ويحطّ وينطّ

وكأنّه نملة لم تجد لنفسها مأوى، يبحث عن إمام ويبحث عن شهود، يوم الخميس الموعود، السّي بلقاسم، الشيخ سليم، الإمام الشيخ سيد أحمد، والشّاهدان جاراه بن عمر وموح، اجتمعوا ليختموا الميثاق الغليظ بين بلقاسم والسيّدة نادية، فحان موعد أسس الزواج وغنيمة الثّقة بين أهل العروس والعريس، فردّد السي سليم على مسامع الحضور شروطهم قائلا: "عن شروطنا يا ابني فإنّا نسألك أربعا، أولها أن تعمل وتجني مالك بعرق جبينك، وثانيها أن تأوي نفسك في بيت، والثّالث أن تسعد ابنتنا ما استطعت حتى تنقضي حياتكما أو حياة أحدكما، والرابع يا بني إني لا أراك إلا مثلنا أو أكثر منا وإن زينة الفتاة في حليها فزيّن عروسك بالذهب، فإن لم تجد فالفضة على ما تملك ولست مجبرا".

فانشرح صدر بلقاسم وأقسم على إسعاد ابنته ما حيا، وأنّه سيعمل على أن يكون نعم الزوج والعشير، و أن يقضي لها حوائجها ولو بشق البحر، حينها تعالت ضحكات القوم وألزموا بلقاسم على أن لا يشق على نفسه ما تستطيع واقرؤوا فاتحة الكتاب.

ثمّ انتقل الزوجان إلى بيتهما وصارت نادية جزءا من بلقاسم، رحّب بلقاسم بنادية على طريقته ممازحا فرحا ومسرورا يجانب الأسى ويشير على الحزن من على وجه صاحبته.

لكن نادية ظلت صامتة طول اليوم، لم تهمس إلا ببضع كلمات حتى تكسر روتين الصمت بينها وبين زوجها، وما إن حل المساء حتى لم تعد تستطيع صمودا في وجه الشوق والغربة، فانذرفت من قلبها دمعات كسرت زجاج العيون لتتساقط حبات الدمع على خديها، نظر بلقاسم إلى نادية وهو يسائلها: ما يبكي الطير في قفصه ؟ أشتاق حرية ؟ أم به شوق لوكر في الشجر؟ ونادية تجيبه: "بل مشتاق إلى الوكر في الشجر، حينها بعث بلقاسم روح الحب والمودّة في قلبها بكلمات، تضمد الجراح، وتكسي العريان ثوب السّلام، بحسرة وألم يتكلم بلقاسم، فيصد أحزان نادية بأحزان أقوى: "يا لسعادتك، لقد حضر والداك فرحك وعقدوا ارتباطك، ماذا عساي أقول أنا؟ آه لو تحدث قلبي بما يطعنه ! لقد توفي والدي ولم أكد أصاحبهما، فإنّ أمّي قد عميت مقلتاها من الدمع المسفوك على هذا البدن الذي أمامك اليوم، أمّا أبي فقد تجندت لأخلفه في كفاحه بعد أن صار كهلا لا يقوى على مجابهة العدوّ، أتعرفين ماذا حل به؟ لقد عذّب، لقد عذب حتى الممات، أما أمي فلم أعد أراها وقد روي لي أنها تشرّدت وهامت، لم أستطع أن أضم صدرها المطعون، ماذا تركت لنا فرنسا؟ غير الأسى، تشردت أمّي وماتت. وقد قيل لي أنها حينما كانت تحتضر قالت: ابني بلقاسم سيحرر الجزائر رفقة إخوانه، لقد منعتني فرنسا من أهلي وأرضي ورمت بي في الجبال والأحراش، لكنها نسيت أن هذه الجبال والأحراش هي جزء من الجزائر، لقد تغذينا

سمَّ ومرارةَ الألمِ وثرنا على الأعداء، فحطّمنا قلوبهم وآلياتهم، وحررنا الجزائر"

تلألأت قطرات الدمع من على خدي بلقاسم وتذكر كيف أنّه لم يعش حنان والديه ولم يتمتع برؤيتهما كما يريد، ألقى برأسه على كتف نادية، كطفل سرد ما في قلبه المنفطر، آه أين كنت يا أنت؟ لو مررت قبل مدة لكان بلقاسم لا يزال شابا، لم يهرمه الحزن والأسى: "حرموني من أهلي، من أبي وأمي وعمار أخي، أنت لم تعرفي عمارا! لن أنسى هؤلاء الأوغاد سألعنهم كل صباح وكل مساء، وفي كل صلاة، لن أتركهم لو أخذوا حياتي لكان أهون علي من أن أنفطر طوال حياتي في أهلي وأحبتي..."، لقد كانت نادية تشعر بما يراود زوجها وترى ذلك فيه وكأنّ صمته يخفي شيئا ما منذ أول يوم في حياتهما كزوجين، فقالت له: "أتعلم يا بلقاسم أنت زوجي وأخي وأنت أبي، واعلم أنّي لن أختبئ من الخوف وسوف أساندك لآخر رمق في حياتي وأرجو من الله أن أكون خير معين لك، فهل ستثق في ؟" ويردّ:

"وهل تزوجتك لكي أشكّك فيك؟ بل أنت أعزّ ما لدي؛ فأنت الأمّ والأخت والزّوجة، ولئن أخذ الله منّي عائلتي التي جمعتني بها صلة الدم فإنّ الله قد أهداني زوجة تبعث روحي من جديد، واعلمي أنّي لأجلك لن أنوء عن شيء وإن كان صعبا".

هكذا رد بكل صدق على نادية، ما أحوجنا إلى المودة بين أنفسنا، إنّها المودة والرّحمة التي جعلها الله بين

الزوجين، لا توقد إلا بأنفسنا، النفس المنطفئة لا تشتعل إلّا بالرّحمة والحب والسّلام واللّين...

نهض بلقاسم في اليوم الموالي فوجد أن زوجته سبقته في الاستيقاظ وأعدت له فطوره وسخّنت الماء لأجله ليتوضأ ويصلي، سرَّ بلقاسم بذلك وشكر لها سعيها في قيامها بأمر المنزل وانطلق إلى عمله. ظلت نادية في ثاني يوم وحيدة في بيتها الجديد حتى سمعت طرقا في الباب، و بما أنها لا تزال جديدة فقد اضطربت واقتربت من الباب تسأل من الطارق؟ أسائل حاجة؟ أما بائع جوال؟ أجار أنت ؟ أم عدو؟ لكن ترد من خلف الباب عجوز "أنا الحجة خديجة جارتكم" بنبرة من الشيخوخة والعتاقة، كلمات توحي بحب العجوز لاستطلاع أمر الجيران، أإهتمام بهم ؟ أم تسول أخبارهم؟ أدخلتها نادية ورحبت بها و بدأت الحاجة خديجة في فحص نادية معدة بنكا من الأسئلة، هل أنت زوجة بلقاسم؟ أوّل ما تسأل عنه أي سائلة للجارة الجديدة، فبلقاسم لم يعتد أن يحضر خادمة للمنزل، وبكل لطف تجيبها بأنه زوجها، بلا سأم أو ملل، تحترمها لشيخوختها، وترجو أن تحل البركة في بيتها بهذه الزيارة، ثم تدعوها بسعة أن تشرب كوبا من القهوة معها، لكن الحجة خديجة تعتذر عن ذلك معللة أمرها بزيارة ابنها في السجن، لكنها سرعان ما تعود لتسأل نادية: "لقد كان بلقاسم بطلا نحن نفخر به، هل هو جيد معك؟ هل يتركك تذهبين إلى أهلك؟ إنّه حزين دائما.." بساطة نادية تجعلها تؤمن بأنّ الإحسان

يجب أن يكون عنوان الحياة، فتجيبها عن ما تسأله لعلها تعينها يوما على حاجة لا يفهمها الشباب، وبينما هما على هذه الحال حتى دخل سي بلقاسم، فرحب بالحجة خديجة، وعزمها على كوب من القهوة، لكنها اعتذرت وخرجت منصرفة، تبسّم بلقاسم بعد خروج الحجة خديجة متسائلا عن سبب مجيئها، فأخبرته بأنها أرادت الاطمئنان عليها، فطلب بلقاسم من نادية أن تسايرها فهي عجوز، وهذا ما فعلته، ثم حاول أن يمازح زوجته حين طلب منها أن تخمّن ما حدث، فأجابته بسخرية: "هل أهديت أسبوع عطلة؟" فأخبرها بمرح أن والديها قادمين لزيارتهما، حينها اعتذرت منه وقامت لتعد المنزل لاستقبالهما، وبلقاسم ينظر إليها حائرا... أهذه الفتاة التي سخرت منه قبل قليل؟"حسنا، لقد أحضرت دجاجة وزجاجة عصير وبعض الفواكه وهذه خضر وحليب وستجدين الزيتون هناك كذلك". هذا ما أنهى به حيرته. بعد ساعة جاء الشَّيخ سليم رفقة الحجة كريمة، وقد رحبت بهما نادية وسعدت برؤيتهما كثيرا وتناولا أطراف الحديث والأمّ تسأل عن أحوال ابنتها والأب يقص أيام شبابه على بلقاسم، حتى حان موعد رحيل الحجة والشيخ سليم وقد لاحظت نادية أن أباها يبدو تعبا فسألته بلهفة عن حاله، فأجابها أنّه بخير وليس به شيء يدعو للقلق، ثم إن بلقاسم قام بإيصالهما إلى سيارات الأجرة وتأكد من ركوبهما، وقد كانت نادية متصلة جدا بعائلتها وبلقاسم لا يضره شيء من ذلك فهو يفرح لوفاء

زوجته لأن وفاءها لوليها سيجعلها زوجة صالحة وفية لزوجها.

مرت شهور على زواجهما وحياتهما تزداد فرحا وسرورا وتمسّكا، لقد كانت نادية سعيدة بزوجها بلقاسم فهو لم يمنحها قصرا ولا كنوز قارون لكنه منحها الحب الذي تتمناه كل امرأة والحنان الذي تشتاق إليه كل فتاة تصبح في ذمة رجل آخر، وبينما هذه الأيام السعيدة تمر يرن الهاتف في الغرفة المجاورة، و تهرع نادية للردّ بابتسامة بهيجة: "ألو" لقد قالتها بكل هدوء وحنان لامست بها أذن المتصل وحركت فيه السعادة للرد، لكن السعادة لم تكن من نصيب المتصل هذه المرة، لقد كانت الحجة كريمة تبكي وتتألم في الهاتف، لقد جعل هذا الأمر نادية تقلق وتضطرب وتسأل بلهفة "ماذا هناك ؟ أخبريني يا أماه"، جمعت الحجة كريمة قوتها على الهاتف وأخبرت فلذة كبدها بقلب منفطر ولسان عاجز وعين تحترق من حر الدمع المنهمر "مات أبوك يا ابنتي" هذه الكلمات تساقطت على نادية فأثقلت كاهلها، تسمرت في مكانها وجعلت تحدق بعينيها اللتين اتسعتا وعجز لسانها عن النطق، لقد بهتت، والدي كيف ذلك ؟ ماذا حدث ؟ كيف مات ؟ لقد كان بخير ! والأم تنادي في الهاتف على نادية " يا نادية يا ابنتي ردي علي" فجأة وفي لحظة من الصمت القاتل تنادي نادية بحرقة " يا بابا يا بابا " وقد سمع صراخها الجيران فهرعوا إلى بيت بلقاسم وبلقاسم الذي لم يعرف ماذا يحدث إذا به يسمع صراخ

زوجته يترك ما بيده و يجري نحو الغرفة التي كانت بها وهو ينادي: "نادية أين أنت؟ ما بك يا نادية؟" حتى دخل عليها والهاتف في الأرض وهي جالسة تبكي وتتمزق ألما لمصيبتها، كان الزوج المسكين يقاوم بكاء نادية ويحاول أن يفهم ما تقول ولكن هيهات أن تسمعك يا بلقاسم فهي الآن في ملحمة مع الأسى عنوانها فقدان الأب، فاهتدى بلقاسم إلى حمل الهاتف وسأل: ألو ! من هناك؟، فكانت الحجة كريمة من رد: "يا ابني أنظر نادية لقد أخبرتها أن الحاج قد مات" بلقاسم الذي تذوق مرارة الأسى من قبل لم يكن غريبا عليه هذا الشعور لكن أن يرى زوجته تنادي وتنوح سيجعل شعوره غريبا، تماسك بلقاسم وقام بمواساة زوجته وحضّرها للذهاب إلى الحجة كريمة.

لقد انطلقت هذه الفتاة المجروحة رفقة زوجها الذي لم يجد ما يفعله اتّجاه هذا الأمر سوى أن يخفف عن زوجته قائلا: "كلنا سنموت يا نادية لا تفعلي هذا بنفسك أرجوك" لقد كانت رؤيتها هكذا أصعب عليه من فقدان أهله، وبعد لحظات وصلا إلى بيت الحجة كريمة فقدما تعازيهما وعزّت نادية أمها في أبيها وظلت معها طوال أيام العزاء وبلقاسم قائم رفقة أهل عروسه على أمر البيت.

مر أسبوعان منذ وفاة الحاج سليم والحجة كريمة تشعر بالوحدة والأسى يقتلها كل يوم ببطء، وقد لاحظ بلقاسم أن زوجته كذلك لازالت حزينة على فقد أبيها رغم أنّه قد مر أسبوعان على وفاته، فقرر أن يحضر أم زوجته

لتعيش معهم في بيته، ولم ينتظر حتى يخبر نادية التي لم تتمالك نفسها من هذا الخبر وقد استبشر حين رآها سعيدة، لقد كان أمرا رائعا بالنسبة له أن يرى فرحة زوجته بعد ما أصابها من الكآبة والحزن، فكانت أول ما فعلته نادية أن اتصلت بأمها تخبرها بالقرار الذي اتخذه زوجها، لم ترد هذه الأم أن تكون عبئا على بلقاسم وزوجته فرفضت إلا أن إصرار بلقاسم جعلها تتحفظ على القبول ورغم ذلك فإن بلقاسم حضّر ما يمكن تحضيره لنقل معيشة الحجة كريمة إلى بيته.

لقد جاءت الحجة إلى بيت بلقاسم وعاشت فيه ما كتب الله لها أن تعيش، وما أقصر أيامك يا حجة كريمة بعد وفاة زوجك، لابد أن شوقها لزوجها لم يطيبّ لها العيش إلى جنب ابنتها، إنّه هو الحب الحقيقي الطاهر أن تكون أثار أقدام حبيبك كنزا تحتذي به إني أعجب كثيرا اليوم لمن يرى الزواج والعلاقة الزوجية مجرد احتفال وسهرات على مرّ أسبوعٍ وتظاهر بالثراء والكثير من الإسراف، مازالت بعض النساء يتزوجن لأجل جمال الرجل وماله، ومازال بعض الرجال يتزوجن من أجل جمال المرأة وجسمها، وهذا لن يحقق الرباط الزوجي المقدس الذي سماه الله بالميثاق الغليظ.

لقد عاشت نادية مع زوجها أياما رائعة ذاقوا فيها حلوا ومرا وتناوبوا مكابدة العناء، لقد خلفت نادية سبعة أبناء رفعوا رأس بلقاسم وظهرت فيهم أخلاق نادية الطيبة

فكان نور الدين وعبد الله وعلي من أحسن موظفي شركاتهم ومؤسساتهم، فمنهم من كان أستاذا ومنهم من كان تاجرا ومنهم من كان طالبا، وكانت فطيمة وكلثوم وجميلة حسناوات العائلة جمالا وأخلاقا وقد تزوجن كلهن، أما السابع فهوالحسين الذي توفي صغيرا وكان للعائلة نصيب من الحزن فهو أول أولادهم وأول ميّتهم.

إن بلقاسم رجل شهم بنى بيته على الحب رغم قسوة العيش، ونادية كانت زوجة وفية طيبة لم تجعل زوجها يجرح مشاعرها وحتى لو أخطأت ما كان لبلقاسم أن يقول لزوجته شيئا، وأمّا أبناؤهما فهم محصول إنتاجهما.

الغريب

كل يوم أتذكر فيه أنّني حيّ، أحاول أن أقوم بما يقوم به الأحياء، أؤدي واجباتي الدينية والدّنيوية، لقد تعودت على هذه الحياة، وتعوّدت على رعاية الأهل، هذا جعلني أكبر وأتعلم أن كل شيء يزيد ينقص، وأنّ العمر المديد إنّما هو مرور زمن طويل على البشر. لقد كنت أقوم كل صباح إلى الجامعة، أخرج من منزلي على الثّامنة صباحا متجها نحو المحطة، التقي في طريقي بفتاة جميلة كل صباح فنلقي التحية على بعضنا، ونواصل.. إنّها تذهب للمحطة في الحي المجاور لي وأنا أذهب للمحطة في الحي المجاور لها. وحينما أسلك طريقي تمر بي حافلة الطلبة وهي ذاهبة لتُقلّ الفتاة ومن معها في الجهة الأخرى، بينما أمر على صديقي عبد القادر ألقي عليه التّحيّة وندردش قليلا، حتى يمرّ أيّوب فاذهب وإيّاه ننظر الحافلة.

إنها صباحياتي كل صباح بهذه الطريقة، وكلّ ما يحملني على ذلك إلا تلك الفتاة الجميلة التي أراها كل يوم وأقضي معها معظم وقتي، إنّها بارعة في القضاء على الملل في حياتي، لم يكن لقاؤنا في مطعم على شاطئ البحر أو مقهى عائلي حتى إننا لم ندخل صالة عائلية معا، لقد كان اللقاء مقدرا حينما كنت أستقلّ الدرّاجة، لقد كان أسعد أيام

حياتي، اِلتقيت فيه بزهرة عطرت جوّ قلبي وأسالت حبر قلبي وأدمت فؤادي بفراقها كل مساء، منذ تلك اللّحظة صرنا أقرب صديقين، نلتقي كل يوم لندردش ونتمازح، إنّنا نلقي النّكات ونضحك بهستيريا، وكأنّ قلبينا ملآ ألما من قبل أو كأننا نريد أن نتحدث في أمور ما، ولكن ذكرياتنا لا تسمح بهذا الحديث فتجري على ألسنتنا طرائف.. استمتع بالنظر إلى عينيها إنها تحمل عبارات مخفية تجعلني أحاول أن أخرج ما في قلبها وحينما تحدثني أضمها، وأتركها تتكلّم بعفوية مثل طفلة تريد أن تشتكي من صديقتها التي سرقت منها قلمها، شفتاها تتمايلان حتى لا تخلط بين الحقيقة والزيف لأنها تزيف كلّ ما تقوله عن نفسها حتى لا يمل منها من حولها، إنّي احترمها لذلك، في لحظة ما أخبرتها أنّي أحبها، لا أعرف معنى ذلك الرد! إلا أنني لم أعجب به أظن أنها ترفضني تارة ولكن أقول في نفسي ماذا في إن تخبرني؟ وتارة أقول إنها لا تريد فراقي ! وقد عدت يوما مهموما شارد البال ليس بي ما يحمل إلا عينيّ، أستعين بهما أرى الطريق، دخلت إلى مقهى الحيّ وجلست كالعادة فجاء النادل إلي، الذي صار يعرفني من كثرة ترددي عليه فقلت احضر لي قهوة، تعجب من هذا الطلب لقد تعودت على غيرها وأنا جالس أجول بنظراتي في وجوه الناس، مبتسما وضاحكا حزينا ومهموما، وأشخاص يتأملون في السماء مع سيجارة وقهوة. حتى انتهى بي الحال أفكر وأجول بخاطري في متاهات المستقبل الذي لم يكن علي أن أخوض فيه.. وبينما أنا هكذا حتى جلس إليَّ

رجل كبير معتذرا يطلب أن يجلس معي: يا بني أظن أنّك تجلس لوحدك هل أجلس معك ؟ فرحبت بابتسامة وسعة.. أخرج الرجل سيجارة وقال: إنَّ هذه السجائر تقتلنا وتزيدنا الهموم، ثم جاءه النادل بكوب ماء فقلت له: أحضر لك شيئا تشربه غير الماء؟ ردّ ضاحكا: هل تقول هذا وأنت المتعلم؟ ألم تعلم أن الماء هو أساس الحياة ! فاعتذرت منه وقد بادلني الطرفة، ثم إنّه أخرج من سترته الجريدة وبدأ يطالع الصفحة الأولى وانتقل إلى الأخيرة و أعاد الكرة لأول الجريدة و بدأ يقلب الصفحات ويقرأ بسرعة ويقرأ عليَّ الأخبار التي يهتم لها " الجزائر تتحفظ على موقفها من حزب الله !! ما الذي تريده بالضبط؟"، " اسمع هذه فلسطيني يقوم بعملية طعن يا لهم من شجعان" هو يتكلم و أنا أرمقه بنظرة هل أصبح مثله يوما وأجلس إلى فتى وأتحدث إليه؟ ثم قلت له: يا سيدي أرى أنّك تحاول قول شيء ما فلا بأس تكلم.. هنالك ترك الجريدة وقال بنبرة جادة: الآن وقد طلبت ذلك فسأتحدث إليك، بدأ الرجل يتكلم وكأنّه يحاول التفتيش في داخلي، في لحظة ما قاطعته مطالبا بما يريد، هناك فقط تيقن أنني أحتاج إلى من يحدثني، قال لي: أتعرف إني في سن الخمس والأربعين ومتزوج بامرأة ليست ككل النساء، ولدي فتاة إنّها في سن الثمانية عشر وأنا أحبهما كثيرا، إنهما يعنيان لي تعبي وراحتي وفرحتي وخزانة حزني وسري وسعادتي.. كنت أستمع إليه مباركا تارة ومبتسما أخرى، أتعجب من شخص لا يعرفك يجلس إليك يمازحك

ويقصّ عليك من إخباره، وهو يتكلم قال: إنَّ زوجتي لم تكن الفتاة الأولى التي عرفتها ولكنّها آخر من عرفت وتمنّيت لو كنت أول من عرفت، لقد رأيتها وأنا في سن العشرين وقد كنت طائشا لقد كنت أسير مع فتاة جميلة _ضاحكا_ محاولا أخذها لنشرب أكواب من القهوة، فحينما رأيت مستقبلي يمر أمامي عرفت أني لن أهدأ حتى أتحدث إليها لكن من تكون وهل تدرس وأين تسكن؟ لقد أمضيت ساعتين فقط مع الفتاة الأخرى فقط لأتحقق من التي رأيتها، وقد أشارت السّاعة إلى الرّابعة وأنا أمر بثانوية رقم ثلاثة لقد قضيت أفضل أيام دراستي هناك حتى رأيت تلك الفتاة فيا لفرحتي وقفت مبتسما وهي تمر أمامي فإنّي أذكر ذلك وكأنه حدث أمسا قلت لها معاكسا أيتها المليحة أسرتي قلبي وأخذتي دربي فانفجرت ضاحكة ولم تلتفت إلي حتى لكن ذلك الأمر أعجبني وكأني متأكد من نيلها، ومنذ ذلك الحين بدأت أتردد على ذلك المكان وبين الفينة والفينة كانت تحادثني حتى صرنا صديقين مقربين نلتقي هنا هناك ونمشي معا ونتبادل الأحاديث الطوال، إنّي أذكر ذلك اليوم كان يوم السبت وقد تشجعت لأن أقوم بأمر ما نحو تلك الفتاة، لا يجب عليَّ أن أقول لها صديقتي يجب أن تكون حبيبتي، وفي ذاك اليوم التقيا وظللت صامتا وهي تثرثر وتتكلم لا تعلم ماذا يحدث في داخلي، كانت تتكلم وتضحك وأنا لا أدري ماذا تقول، كنت أنظر نظرة ذائب في الحبّ لأنَّ قلبه وتمدد صدره لم يقوَ لساني على الحديث والتصقت شفاهي، حتى

انتبهت لي ولصمتي الرهيب: ما بك أنت على غير عادتك؟ وأنا أنظر إليها وقلبي يخفق ويرتجف وكأنَّها أوَّل مرة أتحدث إليها، بدأت في القلق وهي تسألني أنت مريض؟ جائع! تريد الاستراحة؟ حتى تكلمت بشدة قلت لها ودون توقف حتى إنّي لم أترك لها مجالا لترد عليَّ: يجب عليك أن تسمعي أنت لست صديقة، أنت لست ما تظنين أنا لا أريد إن أكون صديقك ألم تفهمي بعد؟ ألم تدري؟ أنت حمقاء، تمهلي قليلا دعيني أشجع نفسي على التكلم معك، ثم صمتت قليلا وهي تنظر إليَّ مستغربة ومفاجئة وقد آلمها كلامي لأنّي لم أخبرها فقط بما يجب أن تعرف ثم قلت لها وأنا أنظر في عينيها: أحبَّك، واعتذرت لها على فظاظتي وإنّي ملزم على فعل ذلك لأنّي كنت في موقف لا يتكرر وهو أفضل موقف أعرب فيه عن حبي وغادرت وتركتها هناك جالسة وكأنَّها صماء بكماء، وغادرت وفي قلبي ندم شديد لأنّي أخبرتها بحبي لها، لقد كانت غلطة بالنسبة لي وفكَّرت في أنَّها سوف تمقتني ولن أكون مجرد أخرق أدّعى الحب، بتُّ ليلتي وأنا أفكر في تلك الفتاة وأنا أتمنى لو عدنا لمقعدنا، ومرَّ الوقت وسألتني وأجبتها أنّي تعبٌ فقط، لقد كانت ليلة عذر وليلة أسى أفكر وأفكر، جافاني النوم وعز عليَّ إغماض عيني وفي اليوم الموالي مررت من الثانوية متخفيًّا ووقفت في زاوية على غير عادتي أراقبها وهي تخرج فانتظرت وانتظرت وطال انتظاري ولم تظهر، فقلت في نفسي ربما خرجت في وقت سابق وعدت لمنزلي وكررت الأمر كل يوم وكل ساعة تركت كل شيء

وانشغلت بالانتظار لكنَّها لم تعد لقد غابت إلى الأبد، فبدأت أخمن هل ماتت؟ هل ما قلته لها كان السبب في اختفائها؟ لقد صارت حياتي جحيما منذ لحظة "أحبّك" لقد مررت بأيام عصيبة وصارت حياتي ملبدة وأنا في سنّ العشرين فقط، لكن ستظنّ أنّي في سنّ أحبّ وأعجب فقط.. نعم أنا كذلك فكرت بهذا وقلت سأعثر على فتاة أخرى... لكن هيهات هيهات لقد تمكنت من قلبي، فنظر إليّ وقال هل أزعجك؟ فقلت له: طبعا لا أنا أستمع إليك أريد أن أعرف حتى النهاية.

تبسم وأخذ يقصُّ ما جرى بعد ذلك فقال: مرّت ستّ سنوات يا بني منذ تلك الكلمة، انتظرتها كل يوم أمام الثَّانوية كل يوم، لقد تركت حياتي هناك وأنا أنتظر لمن آثارها اختفت وما عادت وأنا لم ولن أنساها. يوم السبت وأنا عائد من العمل وبعد ست سنوات وقد تعودت المرور بالثانوية لأنها طريقي رأيت فتاة جميلة طويلة في عز شبابها؛ بيضاء تضع حجابا وتحمل حقيبة وتلبس معطفا وعلى عينيها نظارات شمسية، لقد لسعتني من بعيد وشممت رائحتها، إنّها هي حبيبتي، لم أتمالك نفسي حينما رأيت الحمام يعود لعشّه، لقد بدأت يداي ترتجفان ولساني تخدّر، فلم أستطع النّطق وكأني سمرت في مكاني وهي لا تعبأ لي، ولا تلتفت لي فلم ترَني بعد، ثم إنّي فرحت برؤيتها فرحا شديدا وهممت بالذهاب إليها حتى رأيت طفلا قد جاء إليها وهو يجري، انحنت وقبلته وأمسكت يده وذهبا معا. لقد أحسست من جديد بشعور راودني قبل ست سنوات، أردت

أن أذهب إليها وأخبرها بأنّها خائنة وأنها لا تستحق أن يحبها أحد وأن قلبها حجر.. ولكن هدأت وفي موقفي ذاك تبسمت فيا ترى لم يتسنَّ لها حتى لتجيبني بالرفض أو أن مغادرتها كانت رفضا، كيف تخونني وهي التي لم تخبرني بما أخبرتها؟ لقد غِرت فقط ولم أكرهها، كيف أفعل وقد تمنيت لها السعادة ووضعت فرحها فوق كل اعتبار! وقد تبعتها في ذاك اليوم متخفيّا حتى أعرف هل تعيش هنا أم أنّها تزور فقط، فمرّت بالأحياء مع ذاك الطّفل حتى وصلت لمنزل كبير وجميل، دقّت الباب ففتح شخص ما، كان رجلا عانقها بشدّة وهي كذلك، فقطعت الشك بما رأت عيني و كانت بداية محو الذاكرة منها، فلا يجب أن أجعلها تعيش قلبي وهي تعيش في بيت رجل آخر. لكن لم يكن الأمر سهلا لقد ظلت صورتها تعانق خيالي وريحها يسكن أنافي، وفي يوم ما وأنا ذاهب للمنزل كالعادة ناداني شخص ما فاستدرت إليه، في تلك اللحظة تمنيت لو أني لم أستدر، لقد كانت هي وتقدّمت نحوي فرحة سعيدة تكاد تطير إليّ، وأنا أنظر إليها منكسرا بابتسامة لولا أني حسبتها متزوجة لصرخت فرحا، لقد وقفت أمامي وهي تنظر في عيني وتريد أن تتكلم، لقد عانقتني أمام الناس وبكت بحرقة فقلت في نفسي يا إلهي ماذا يحدث؟ هل سأكون سببا لمشكلتها؟ فدفعتها عنّي وقلت أنت متزوجة احذري مما تفعلين. أتعلم ماذا قالت؟ فرددت عليه بهزّي رأسي لا.. فقال: لقد قالت أيها الغبي لست متزوجة من أخبرك بهذا الهراء؟ هناك ضحكت بشدة حتى

انتبه لي الناس وكأنّه قد جن جنوني وهي تضحك معي وقد بكيت بشدة فرحا بهذا الخبر، بعد ستّ سنوات تعود ولم تتزوج بعد، نعم بكيت وعانقتها بشدة، اتّقدت نار حبي وتلعثمت وأنا أخبرها بأنّي آسف حين أخبرتها بحبي، لقد تأسّفت لأنّي ظننت أنها غادرت بسبب رفضها لي، ثم إننا ذهبنا للمقهى نجلس ونتحدث فقالت لي أنها لم ترفضني وأنها تحبني لكن لم يكن هناك مجال لتخبرني بذلك لأنها بعد أن غادرتها أنا تلقت اتّصالا بأنّ أخاها قد توفي في حادث وقد كان يعني لها الكثير ويحبها كثيرا، وقد سألتها عن الرجل الذي عانقته فأخبرتني أنّه أخوها من الرضاعة، فقط هناك ضحكت وأنا أنظر للقدر كيف يعلمنا في هذه الحياة، وقد أخبرتني كذلك أين ذهبت حين اختفائها، فقالت لي أنها سافرت مع أمها لتعالج في الخارج واستقرت هناك كل هذه المدة. لم أرد أن أسألها أكثر من ذلك ولم أخبرها بأنّي كنت أعيش الجحيم.. أتعلم يا ولدي لقد نسيت كل شيء بعد رؤيتها ولما تكلمنا كأننا لم نفترق ولم تعد تلك المدة في الحسبان، إنّه أمر رائع أن تحس بالحب وجميل جدا أن تعرف أن حبيبك أنت حبيبه، وبعد أشهر تزوجنا وها أنا ذا معك غريب أقص حياتي عليك فماذا ترى؟ تبسمت وأخبرته أن قصته هذه بنيت على الصدق والوفاء، فمن سيصبر ستة أعوام غير محب عاشق، لقد قلت له يا سيدي لقد حطمت أسطورة امرئ القيس وعنترة ونسجت قصة حب الغريب، أمّا أنا يا سيدي فإنّي لا أرى نفسي أهلا للصدق في

الحب خاصّة ما يجارينا اليوم من عادات دخيلة وقوانين ليست بكل ذاك الحياء الذي عهده الحب سابقا، أظنّ أنّ قصتي لن تنتهي وإن انتهت فستكون أسوأ قصص الحب على مرّ التّاريخ، صمتنا قليلا ثم تبادلنا الوداع لأننا نعلم أننا لن نلتقي من جديد وإن التقينا فلن نذكر بعضنا أو سندعي ذلك ليبقى كل شيء سرا، هكذا كُتب لبعض الأمور أن تدفن حية مثل الأحاسيس التي تموت اختناقا في داخلنا، تورّطنا فنكبتها في جوفنا حتى لا تجد كيف تتنفس، إنّه الموت بكل احترام وكرامة في عالم العشق والهوى.

إنّني هكذا قررت أن أعيش بقلب ميت لا يتعلق بأحد وإلا سأعيش حسرات الفراق وآلام الاشتياق، وسأبقى متخفيا أراقب من بعيد حتى لا أخطئ ولا أخرق القانون الديني ولا الدنيوي وأعتزم أن لا أكون الشخص الشرير الذي يقود الناس إلى مكائد الحرام.

أمّا عن حبيبتي فسأترك الزمن يحرك حروفه علّه يجد كلمة أخرى تجعلنا نجتمع فيما يرضاه كلانا وليس فقط ما يريده إحساسنا وحاجتنا إلى بعضنا، إني هكذا أطفأت مصباحا وأشعلت شمعة حتى إذا كادت لتنطفئ وجدت السبيل لحمايتها، لأن ذلك المصباح سينير كافة الأرجاء ويكشف الأسرار ونحن لا نريد ذلك، لذلك أريد لحبيبتي أن تستمتع بحياتها من دوني وتأتي إليّ في يوم وتنظر هل ستتغير متعتها أم ستبقى كما هي ؟ لكن أعهد إليك أنّي الغريب عنك فأحبيني إني مناشدك.

الحبّ الأوّل

حينما قالت لي أنت تروقني أيقنت أنها لن تبقي عَلى هذه الكلمة طويلا وستقول

يوما ما: "أحبك" لذلك ظللت أبتسم في وجهها وأدّعي الاندهاش "حقّا !!" وهي تجيبني بكل صدق: " نعم كثيرا ولا أعرف كيف أعبر عن هذا الشعور"

وقد اعتدت التجول في شوارع مدينة مغنية رفقة عبد القادر صديقي.. وكنت لا أزال صغيرا أربعة عشر سنة.

إنّها **2007** مرّت سنة على نجاحي في شهادة الابتدائي وبعدها تغير كل شيء، وكما قلت اعتدت التجول في المدينة والعودة إلى المنزل عند أذان المغرب، لكن هذه المرة وجدت ما غير مسار حياتي، وجدت فتاة في منزلنا، كانت رائعة وجميلة، وبمجرد دخولي ألقت إلي بنظراتها كي أحتضنها وأخضعتني بابتسامة ولكني شعرت بذلك الخجل، بل إنّي لم أبادلها حتى الابتسامة، ذهبت إلى غرفتي وظللت أتذكر ما حدث للتو وأسرح بخيالي في ذلك الجمال بعقل الطفل في داخلي الذي يزاحم ما مررت به صور الأبطال الخارقين الذين يعرضون أنفسهم للخطر في سبيل إنقاذ الناس، ودائما ما يملكون معجبات جميلات وحبيبة يتفانون في إنقاذها، لكنّي لم أكن ذلك النوع بعد؛ أقصد الفتى الذي

لديه حبيبة، ذلك لأني تربيت في كنف والدين سهرا في تعليمي وتدريبي على حسن الأخلاق وترك المشين منها، لذلك بقيت ملازما للبحث في الدّين والتقرب إلى من هم في غنى عن الدنيا وملذاتها ولم أطمح يوما لأن أنجر وراء الدنيا، ولكن نظرة تلك الفتاة أشعل فتيلا طويلا جدا لم ينفجر حتى مرّت عدة سنوات.

ظننت أني لن أرى ذلك الوجه الجميل من جديد، لكن حينما عدت إلى المنزل في اليوم الموالي، فتحت هي الباب، نظرت إليها نظرة وقد برزت عيناي إليها، واحمررت خجلا وتعرقت لدرجة أني لم أستطع النطق لأقول: هل يمكنني المرور؟ لكن تلك الجميلة ظلت واقفة تنظر إليّ وهي تبتسم بكل برودة، يا إلهي لقد كانت شريرة وتعلم أني أخجل لهذه الدرجة لذلك عاقبتني، تريد أن أتكلم معها، كان ذلك مزعجا لي ومحرجا في نفس الوقت لكن دخلت بحمد الله، وفي ذلك المساء وبينما أنا منشغل على الحاسوب حتى اقتحمت غرفتي وطلبت مني قائلة: " هل تأتي لتجلس معنا ؟"، كنت تخلصت قليلا من خجلي بعدما حدث ولكن بقيت أنظر إليها وإلى جرأتها كيف تدخل غرفتي من غير إذني؟ ولازلت أنظر إليها، وهي تبادلني النظرة وعينياها تتسعان ثم قالت: "هل تفعل؟"، حينها فقط استعدت نفسي وعادت إلي أفكاري وقلت: "نعم، نعم قادم"، وما إن خرجت حتى ألقيت برأسي على طاولة الحاسوب ألوم نفسي، لماذا أنحرج منها؟

لقد سحرتني كلماتها القليلة، وأخذت عقلي تلك النظرات، فلم أتمالك نفسي حتى وجدتنُي جالسا معها، ليلةٌ نزعت مني حرجا وحياء وجعلتني أوظب خجلي في حقيبة ما و في مكان ما، لقد تعرفت إليها وصارت من أعز الأصدقاء، صرنا نتسامر على الأنترنت ونلتقي في النهار، بل وندرس معا، وتلك الفتاة تزيد مني قربا وأنا أزيد إليها شوقا، لم أستطع أن أتركها.

إنّها المرحلة التي زادت العلاقة التهابا وكأنها مزجت برصاص منصهر في سنة **2009**، كنت أتابع تطورات المباراة بين الجزائر ومصر، وقد كانت أياما صعبة لشعبيْ هذين البلدين، وقد قامت فتنة كبرى كادت تودي بعلاقة الأخوة والإسلام، فلم يترك فيها الإعلام والبلطجية من الشعبين مجالا إلا انتهكوه فتعرضوا للمجاهدين والشهداء، وتكلموا عن الأحزاب والحكام، والحمد لله قد انقضت تلك الفتنة ولقت حتفها، أما ناحيتي فقد تطورت علاقتي بتلك الفتاة وأغرمت بها وتمكن حبها من قلبي إلا أنني لم أشأ أن أخبرها بذلك، لا أظن أن الأمر كان يستحق كل هذا الإخفاء فلقد استوضح في كثير من المرات حبي لها، لكن لم أتشجع لأتكلم بما في قلبي وتركت هذا الأمر في صدري، حتى أخبرتني بكلام جعلني أتخبط في أفكاري وأتلاعب في هدوئي، لقد اضطربت وأحسست عالما جديدا حلّ بداخلي، لقد قالت بنبرة جد وكلها حنان وودّ:"ما عدت تروقني.. أنا أحبك"، يا إلهي كيف وصل الأمر إلى هذا الحدّ، وقد التفتُّ إليها وكأني رجل خبير

بهذه الأمور وقلت بأنّها معجبة فقط وأنَّ عليها أنْ تتريث قليلا، وليتني لم أقل ذلك، لقد عانقتني بحرارة، وقد كان في جعبتي كلام كثير إلا أنها لم تسمح لي بالكلام، وقد رحلت ليلتها، وبقيت أنا متسمرا ولكن هذه المرة كنت متيقِّنًا بأنّها تحبني.

لقد أحببتها و مررنا بأيام جميلة ورائعة، أيام حلوة، مرحنا وتواعدنا وقمنا بتجارب جعلتنا نتقرب من بعضنا أكثر فأكثر، قضينا سنوات كبرنا فيها معا وصنعنا لأنفسنا ذكريات وألفنا كتابا ضخما لا تسعه الصفحات، جل أسرارنا وحياتنا خلال تلك الصفحات الضخمة ورغم أن بعض مشاكسات الصبا ظلت تلاحقنا، مرت أيام الحياة في الثانوية كذلك وصرنا شبابا يافعين وتحركت فينا كل حالات البشر، إنّه ذلك الموقف الذي تحس فيه أنك تستطيع فعل أي شيء دون أن يراقبك أحد، لقد كنت دائما أدّعي أنّي لا أحبها ولكن أنا أحبها، إنها الخشية من كلمة "أحبك" ستجعلك تبتعد عن كل حياتك، عن والديك وإخوتك وأصدقائك، وتنشغل عن دينك، سوف تصبح فارغا، لم أكن أميز معنى الزواج كنت أظنه ممارسات يومية؛ كأن تستيقظ صباحا وتذهب إلى العمل ثم تعود إلى المنزل و أنت تعب فتستحم ثم تأكل قليلا وتنادي زوجتك حتى تنام معك لتنسيك يومك المتعب، إنه كذلك الجدول الفارغ، كبرنا واكتشفنا العديد من الأشياء الخاطئة، لكننا في عمر يمكننا أن نصححها بعزيمة وقوة أكبر.

مرت سنوات 2012 سنة حافلة بعد مدة من الحب والحنين والحرارة وجوّ من العاطفة الفاتنة، وكأيّ علاقة لا ترتبط بالدّين وليست مرصّعة بالشرعية ستنتهي حتما بالإذلال رغم كل طهارتها وصدقها، لقد تعلمت الفتاة أكثر مما يجب وجعلت قلبي فارغا من نفسي ومملوءا بها، لقد صرت أفكر فيها وأكتب الاشعار لأجلها، صرت أبحث عنها في كل مكان، حتى في حيّها، لكنها أرادت أن تغيرّ هذا الفتى الذي لا يبادلها الحبّ علانية، فكما قلتُ.. لم أقل لها يوما "أحبك" صراحة، وبربكم من سيواصل علاقة ليس فيها كلمات رنّانة وأقوالا معسولة، أنا أتأسّف لكن أجبرتها على أن تخون، كانت أول خيانة لها أنها صدفة مع من؟ مع صديق مقرب لي، لا هو يعرف عنها ولا هي تعرف عنه، لقد تبادلت دردشة عابرة عبر الانترنت فقط، فوقعت في شبكة الغدر، ذلك الصباح التقت به في ذلك الضحى البازغ الذي كشف المخفي، اتصل بي صديق وهو يقول: حبيبتك مع صديقنا، لم أتمالك نفسي، ولأنني رجل لم أعر أنوثتها اهتماما، ولا أشك أن هذا خطأ في رجولتنا اليوم، وكأي عاشق اتصلت بصديقي أستفسر منه، ولكن ما وجدته أنّه لا يعرف شيئا مما بيني وبينها، وإنّما فعلت أن نكرت وجودي في حياتها، أتعرفون دموعا صادقة من فتاة! لقد رأيت دموعَ تماسيحٍ صادقةٍ ولم أر دموع فتاة محبة بصدق، لكن رأيت دموع فتيات يبكين بصدق لأنهن أحسسن بقهر وظلم، أنا لا أستطيع تجاوز الأمر؛ أقصد أنني لا أستطيع أن أتغاضى عن

موقف يبُكي فتاة، كيفما كانت جوهرة روحها، فاسدة، صالحة، أنا لا أهتم حقا بتلك المظاهر لأنها تخدع دائما، لقد واعدتها في يوم ما وأجبرتها على الاعتراف، لقد ضغطت عليها حتى بدأت تبكي وتعتذر وأنا "رجل" كم أحتقر تلك الكلمة إن كانت تستعبد المرأة، تلك الفتاة المسكينة ذرفت دموعا أمامي فما كان مني إلّا أن اعتذرت منها لقد رقّ قلبي، تبا له من قلب جلب لي المشاكل.

ثم مررنا بأيام خالية من المشاكل، ظاهريا كانت العلاقة في تحسن ولكن فتاتي تلك كانت تواعد صديقا جديدا، وهي القاضية ما إن بدأت هذه العلاقة، حتى أسقطت اسمي من جدولها، لم أعد مهما لربما لأني لم أنم معها في سرير واحد؟ أو أني لا أملك مالا ؟ أو أني لا أريد أن أخدعها بحب كاذب؟ هي لم تعرف طريقتي ولكنها أحبتني بصدق وأنا عرفت جوهرها وأحببتها رغم ذلك، لقد صادفتها مرارا مع صديقها الجديد ورغم أنها واصلت محادثتي إلا أنها لم تحاول الخوض في الحديث عنه، لذا قطعت علاقتي بها أياما، ولما عدت وجدت أنّها قطعت كل حياتها بي وجعلت مني ماضيا لم يحدث، أتعرفون ذلك الألم حينما تشعر أنك مخدوع من طرف عزيز على قلبك، سيفكر فيه كل من جربه وسيتساءل عن ذلك من يعيش كذبة الحب دون زواج حقيقي.

لقد حدثت أمور كبيرة بعدها لكن بعد صراع طويل نسيت من تكون وبنيت حياتي الجديدة بل وجدت

قرب ربي أمورا أعظم من مرافقة فتيات لا أعرفهن إلّا صدفة، لا أنكر أنني تعرفت إلى فتيات صالحات لكن الحب الأول جعلني أتسمّم من الحب كله، لن أواصل الخوض في قصّة فتاتي هذه لكن لعلها ستقرأ ماذا كانت تعني لي قبل اليوم الذي وجدتها فيه رفقة خطيبها ذاك، ويجب أن تعلم أن فسخ خطوبتها لم يفرحني بالقدر الذي جعلني أتأسف على حياتها..

لكن أظن أن من دعا لي بظهر الغيب كي لا أقع في شرك المحرمات شخص فريد من نوعه، أنا أشكره.

خطبة الجواد

في هذه الحياة يسعى الإنسان جاهدا دوما لأن يعيش سعيدا، وهو لايعلم أن السعادة ليست كل شيء في دار الفناء هذه، يجب علينا أن نمرّ باختبارات تمتحن صبرنا وجلدنا ومسؤوليتنا بل وإيماننا، ذلك ما تعلمه جواد، الحياة ذات قيمة وأنفسنا جوهرة لا يجب أن نلطخها بتسرعنا أبدا.

وبينما أنا أسير إلى المسجد ذات يوم صادفت جواد، إنه يسكن بضعة أمتار عن منزلنا رفقة والديه، إنهم أناس بسطاء مثلنا، يتشبثون بالأمل لمواصلة الحياة الكريمة، إن تلك الحياة الخالية من النفاق والكذب هي أولى أن تكون حياة كريمة، وتمشّينا مع بعض قليلا ولما صرت أمام المسجد اعتذر وأخبرني أنه مستعجل لقضاء حاجة ماسة، صلينا وهممنا بالخروج لكن تفاجأت بجواد يجلس في آخر المسجد، وقد سألته إن صلى معنا واندهشت من تصرفه حين قال "نعم"، علمت من خلال تصرفه أنه يخفي شيئا لا يود أن يخبر به أحدا، لكن أحسست بألمه وثقله على قلبه، فجلست إليه عسى أن يخبرني عما يثقل كاهله.

يا صديقي أتعلم أن حياتي صارت بائسة، لا أحتاج شيئا الآن ليجعل لعمري الذي

أفنيته معنى، لقد تدمّر كل شيء أمام عينيّ، أنا لم أصنع ما أردته دوما، بل ساهمت فقط في تحطيم نفسي.

أجبته مباشرة "أنثى"، فقال هي كذلك، حينها فقط بدأت تتضح صورة معاناته لي، وسألته أن يخبرني قصته.

أنت تعلم أنني أعيش مع والدي، و لسنا ذوي جاه ومال، وكما تعرف مثلي مثل بقية الشباب، كنت ألهو وألعب، وأظن أن هذه الدنيا متعة ولن تزول، لكن كنت كذلك على قدر المسؤولية، ولم أكسر خاطر والدي، ولم أجعلهما يتحسرا على تربيتي، بل بنيت نفسي.

وذات يوم وأنا جالس مع والدي على العشاء، لاحظت أن أمي تتودد إلي على غير العادة، وأبي يسخر منها، وكأنهما تناقشا على شيء ما، وما ظننته حقا أنها سيضعانني وسط قالب، لكن أمي قالت: "يا بني لقد كبرت، جد عملا عله ينفعك في المستقبل"، لقد نزلت هذه الجملة على رأسي كالصاعقة، وكأنهما يحددان لي أن أيامهما معدودة في هذه الدنيا، نهضت من الطاولة و قبلت رأسيهما، وفي قلبي مثل الجمرة، لا يطفئها ماء ولا شيء، حتى التفكير في حياتي دونهما تجعلني أشعر بقشعريرة تنساب في بدني، وفي صباح اليوم الموالي اتجهت إلى صديق مقرب لي، وأخبرته بأن يعينني بالبحث عن عمل مفيد أجني به قوت يومي وأعيل به أهلي، ومن حسن حظي أنه كان يحتاج إلى سائق شاحنة لنقل البضائع، فعملت لديه وليتني لم أفعل، فمشكلتي الحقيقية بدأت من هنا.

لقد عملت بجهد، وتحديت نفسي لأعمل، وقد ظننت أن والديّ قصدا العمل فقط، لكنهما قصدا أمرا آخر، عدت إلى المنزل في يوم وقد تعبت، فوجدت أبوي نائمين، ورغم أنّي تعودت في العمل على أن أتعشى وأعود إلّا أنني لم أفعل تلك الليلة، وقد كنت أتضور جوعا، ومن سوء حظي لم أجد ما آكله، فبت وبطني تصدر أصواتا من الأنين الصاخب، لكن واسيت نفسي بالنوم، وكالعادة أستيقظ صباحا لأجد والدتي قد أعدت طاولة الفطور، ولمّا أخبرتها عن ما حدث لي ليلة أمس قالت وهي ضاحكة: "أنت تحتاج إلى زوجة يا بنيّ". لكنها لم تكن تمزح فأنا أعرف أمّي متى تمزح، ولكن جاريتها في هذا الأمر وخرجت إلى العمل.

كان ذلك خيطا جديرا بأن يجعلني أغير مسار حياتي، التفكير الإيجابي في الحياة وممارستها كما ينبغي، فأنا أصلي وأصوم وأحاول التحلي بأخلاق حميدة، لكن هذه الأمور لا تنفع إذا لم أقدم في حياتي ما ينفعني في آخرتي، فصرت أفكر في الزواج، ولأحفّز نفسي على جمع مال لأتزوج، صرت أبحث عن فتاة، وطال بحثي وعانقت السّحاب لأبحث عن فتاة تروقني، أظنّ أن نفسي كانت جاهلة بجوهر الزواج.

وفي يوم جاء إليّ صديقي وأخبرني بأنه سيبعث بي إلى متجر ما، طبعا لأوصل بضاعة فقط، وانطلقت إلى ذلك المتجر، وحينما وصلت حاولت إيجاد العمال حتى يستخرجوا بضاعتهم، لكن المفاجأة أن العاملين في المتجر كنّ نساء، و المتجر يهتم بألبسة النساء والأطفال، وقد

أخبرتني سيدة المتجر أن الشحنات دائما ما يفرغها الشاحن، ووجدت نفسي وحيدا، الحمد لله أن تلك البضاعة كانت خفيفة جدا، فالألبسة ليست شيئا يضر، وبينما أنا أخرج تلك السلع إذا بفتاة جميلة، لم أر أحسن منها، شعرت بتلك الرقة في كلماتها، وحلاوة في نظراتها، ووقفت أنظر إليها كالأخرق، قالت لي: "هل تحتاج إلى مساعدة؟" وكالأبله قلت لا، لا، لا أحتاج، وكأنّي أتكلم إلى فتاة أول مرة، شيء غريب انتابني حينما تكلمت إليها، وعدت إلى محل صديقي، وحدثته بما حصل معي، فأخبرني هو كذلك أنني أحتاج إلى زوجة، وهنا بدأت حكايتي حقا.

لم أنس ذلك المحل فصرت أتردد على طريقه، حتى البضاعة أمررها من ذلك الطريق حتى أرى تلك الفتاة، وكلما كان هناك طلب منها كنت أجري على قدم وساق لأفوز بالتوصيلة، وكنت كلما أوصل إليهم بضاعتهم أحاول أن أبدأ حديثا مع تلك الفتاة فعرفت اسمها "مريم" وعرفت أين تعيش ولماذا تعمل، لقد صرنا مقربين، ودعوتها أكثر من مرة لنحتفل ونتغدّى معا، لقد كانت تقول لي أنت صديقي المقرب أما أنا فكنت أراها حبيبة لي وأنتهز كل فرصة لأخبرها بأن حبها تمكن مني، ولكن لم أتشجع بعد وكانت الأيام تمرّ.

قررت أن أخبرها في ذلك اليوم، لكنه كان يوم وفاتي عن الحياة، لبست أحلى الثياب ووقفت أمام المرآة أتحدث إليها كالأبله، والتقيت بها وبدت سعيدة، فرأيت أن تلك السعادة ما هي إلا للقائي، بل وتخيلت أن بهجتها نبعت

من بعد طلبي لها، لكنها فاجأتني حين قالت: "بارك لي يا جواد لقد تمت خطبتي أمس." لم أعرف بماذا أرد لساني انعقد ولم أجد أن أفرح لها لأنّي أحبّها، ولم أجد لأن أزعل على خطبتها لأنّي لم أتّقد لها من قبل، ومنذ تلك اللحظة صرت أبتعد عنها شيئا فشيئا حتى غبت عنها شهرا، فأردت أن أعرف أحوالها لذا سرت إلى المحل الذي تعمل فيه، ولما سألت عنها قيل لي أنها رحلت عن المكان ولم يعرفوا وجهتها وأنّ المحل مباع لشخص آخر فهي لم تعد المالكة هنا، لقد وجدت نفسي أتعس شخص وأيأس إنسان بل وصاحب أسوأ حظ، ففي كل مرة آتي متأخرا، فقلت في نفسي لعلها تزوجت وانتهى الأمر، فعدت للمنزل خائبا وانقطعت عن العمل وصار صديقي يتصل بي فأخبره بأني مريض ولكنه يعلم أنّي أكذب فيقول لي حينما ترتاح عُد، حتى صرت لا أردّ على مكالماته، وصار والديّ خائفين يترقبانني كل يوم ويظنان أن بي شيئا، فعزمت أمي أن تأخذني إلى راق بالقرآن الكريم، وقال لي أبي اذهب إلى الطّبيب فلان ليكشف عنك، ولكني لم أكن أجيبهم فخوفهم هذا لم يحركني من مكاني، بل إنّي كنت أرى نغسي خاسرا فقط، ومرّت الأيام حتى صرت ما أنا عليه الآن والتقيت بك.

فقلت له متبسما لعل الله أراد بك خيرا ولعلّه يرزقك خيرا منها أو يجعل هذا اختبارا لصبرك ومسؤوليتك، وإنّك لست ذاك الشاب اللامسؤول ولا أريد أن أراك تخسر في الاختبار، فقم واتصل بصديقك واعتذر لوالديك وتماشى

مع ما قدر الله لك واحمده أنّه أغناك به وبوالديك، وأحب أن أعرف ما سيحدث معك وإني لا أرى ما سيحدث إلا خيرا، وأنا واثق أنك شاب صالح، أنت الآن غائب على الاختبار وصبر الإنسان ينفذ والله واسع عليم، نظر إليّ جواد وقال لعلّه كذلك، وقام من مقعده وسار.

أمّا أنا فخرجت من المسجد قاصدا البيت، ولم أسمع خبر جواد بعد ذلك مدة طويلة، وفي ساعة من نهار وجدته يشتري بعض الخضروات من السوق، فلما رآني عانقني وبكى وبكيت لبكائه، وتساءلنا عن الأحوال، ومازلنا على هذه الحال حتى ذكرني بما حدث في المسجد آنذاك وقد استحييت أن أسأله، لكنه فتح فاه بالخير وقال لي أنه تزوج بتلك الفتاة وأخبرني بأن صديقه الذي عمل لديه رأى حاله من كثرة تردده على محلها، فقرر أن يخبر والدته ليتم خطبتها له، فخطبوها له ووافقت من فورها إلا أنّهم عزموا على إخفاء الأمر عنه، فحدث له من السّوء ما حدث ولما استطال سوء حاله أخبروه، فلم يلبث أن زفّ إليها وأرداها في حياته، وتفارقنا والسعادة تداعب قلبي لما جرى مع جواد، حقا إن هذه الدنيا لا تحتاج منّا كل هذا العناء لكن يجب أن نبقى إلى جوار الله فهو من يحكم أمورنا ويورنا سبل الحق.

اليتيمة

ما أجمل لمّة زمان أمام حكايات الجدة، تقص علينا رحلات الماضي وتسرح بنا في طيات الزمن، وتفتح عقولنا بأبهر ما صنعته العقول وأجمل ما صورته الأذهان، جلسنا إلى الجدة تحاجي لنا وتحكي قصة من أعجب القصص، وتروي لنا أبهى الروايات قصة "سيدة" فتقول

كان يا مكان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان في "دشرة" ما ولدت وسرّ بها والداها، بهيّة، جميلة، لطيفة، تنورت بابتسامتها أرجاء الغرفة القاتمة، ذات العيون البنية تسلى بها أهل الدار وتهلل بها الجيران، سيدة صنعت الحدث أيام ولادتها، كبرت سيدة يوما بعد يوم وتربت في كنف الطبيعة وفي حضن والديها مدة من الزمن، حتى حان موعد لقاء الوالد بربه، توفي أبوها فعانت قسوة فراقه وصارت تفتقد لركيزة الأبوة وسرعان ما نصب أخوها نفسه كوالد وأخ حاول تقديم شخصية الاخ الشديد الذي يعمل على بناء المنزل بكل قوة وحزم، وصارت تكبر الفتاة، وتزداد جمالا وعنفوانا، كانت سيدة تأخذ كل صباح قطيع الأغنام رفقة صديقاتها، يلاعبن الحملان الصغيرة ويداعبن نسمات الفجر العليلة، ويبادرن تبادل القصص بينهن ويتكلمن كبقية الفتيات عن شباب القرية، ويتبادلن الضحكات العالية في الأجواء الخالية، وأثناء الغروب يبادرن

بالعودة تحت حمرة السماء، بتلك النعال البالية وعيدان الزيتون بين أيديهن يطوعن بهم أغنامهن، وتصل سيدة المنزل كل يوم بهذه الطريقة، تلك الأيام التي تمر مثل الأفلام الكلاسيكية فقط أبيض وأسود، كل شيء قاتم، كانت تبتسم تلك الشابة، فاسمها سيدة وهي طبعا سيدة، ليس من السهل أبدا أن تعاني وأنت أصغر من الحياة التي تعيشها، وليس هناك ما سيبعد مخالب الشقاء عن عائلة فقيرة إلّا الله عز وجل، وليعلم النّاس أن الله يراقبهم وأنه يحبهم فهو يذكرهم بذاته في كل حياتهم، فلعل الله ابتلى سيدة بأوجاع متتالية حتى لا تنسى ذكره، ماتت أمها بعد أبيها بأشهر، فصارت لا وليّ ولا درع حامٍ إلا ذاك الأخ الذي أشغلته المشاغل عن تأدية واجب الأبوة والأمومة، فهو الأخ الذي يجالد فلا يمكن أن يتلطّف حتى يقال عنه جبان ولا يقسو حتى لا يقولون جبار، فوجدت سيدة نفسها عند عمها تعيش لديه وما أقسى أن تعيش في بيت غير بيت، وأنْ تنادي صاحب الدّار بعمّي وليس أبي، وأن تقول لأمك يا "مرت عمي" إنّها القسوة الدنيوية التي تنشئ الرّجال، والتي تقوِّمهم ليصنعوا ويبنوا بيوتا لا يبنيها من تغافل عن البلايا واستهان بالرزايا، عاشت تلك الأيّام بين كنف عمها، وبعض القسوة عليها لتنشأ ذات خلق وتربية، وبين لين حتّى لا تشعر بتلك الغربة التي شعرت بها كل يوم، ولكن لم تدم إقامتها عند عمها لتقوم خالتها بجلبها، من الصعب كذلك أن يحس الإنسان أنّه قطعة أثاث ينقل كل مرة إلى مكان، إنّه ما

لا يفكر فيه المتنعمون بالعائلة، لا يعلمون أنّ الإنسان بلا أهل كأنه ورقة متناثرة يجب جمعها لا إهمالها، ولكن أين تلك العقول؟

إنّها اليتيمة صارت تكبر وتزداد جمالا، عيونها الجميلة، وشعرها الطويل، أبهرت شباب الحي بأخلاقها قبل جمالها، لا تكلم أحدا وتستحي أن ترفع عينيها حتى في جارها، كيف بربكم ليتيمة أن تفسد أخلاقها إلا من اشتهت الحياة الدنيا وظنّت أنّ اللعب واللهو سيسدّ ثغر فقدان الأهل، لا يجب أن نتخاذل عن إخواننا اليتامى حقا، ولا يجب علينا أن نفكر في أنّ اليتامى منحرفون، لأنّنا نحن المنحرفون من ننعم بالأهل والأمان، صعبت الحياة مع تلك الخالة، فهي لاتعوض حنان الأم، ولا تدفئ برود القلب ولا تجفف دمع العين، ولا تخمد نار الشّوق، وأيّ مَسدٍّ يَسُدًّ عطاء الأم "نبع الحنان" كما تغنى الرّواة والشّعراء، لا يمكن أن تتخيل وأنت بين والديك أن تعيش مع خالتك وتقول لها يا خالتي أريد كوب ماء في منتصف الليل حتما ستستحي أو تخاف ردّة فعل الغريب القريب، هل يا ترى سترد عليّ "نوض جيب لروحك؟" أو "أنا لست بأمّك؟" أفكار تدور في بطن العقل تشوش على التقدم في الحياة، لكنَّ سيدة واصلت الحياة فهي تريد أن تعرف ماذا سيحدث.

وذات يوم تخرج سيّدة من البيت متجهة إلى الدكّان الذي يبعد شارعين، اشترت بعض الحاجيات وهمّت بالخروج، فرآها صافي وأُعجب بها، وكما يفعل الشباب حاول

معاكستها ولكنّها أبدت انزعاجها وخوفها، تبعها صافي حتى وصلت المنزل، فعاد وفي قلبه جمرة حبّ لهذه الفتاة التي سلبت عقله وتيَّمت فؤاده، أمّا سيدة فعادت للبيت وأغلقت الباب ووقفت خلفها خائفة مرتعدة ثم بدأت تضحك وتبتسم كالمجنونة، ولم تحاول أن تخبر خالتها خوفا من أن توبخها، ومر اليوم بسلام.

نسيت سيدة أمر الشاب ذاك، كأنما هو من باقي الشباب الطائش الذي يريد أن يعبث ويعاكس فقط، لكن تفاجأت لما رأته جالسا قبالة بيتها يرقب خروجها، هنالك ظنّت أنها هلكت، فالفتى يتبعها ويعرف بيتها، من هذا الغريب وما الذي يريد؟

كان صافي ورغم أنه ككل الشباب الآخرين إلّا أنّه كان كذلك قمة في الأخلاق، وشهدا في التّعامل، فلم يتجرأ على الاقتراب من بيتها أو الحديث إليها، وصار كل يوم يأتي إلى نفس المكان وسيدة تنظر إليه من وراء الحجاب، فاستسلما للأمر الواقع وصارت تخرج للدكّان ولا يزعجها، ويعود معها ولكن في الجانب الآخر من الطريق ولم يتحدثا قط، ولكن كانت نظراتهما تتبادلان حوارات طويلة، لن يفهما المارون ولن يفهمها العاملون فقط، أولئك العشاق هم من يفهمون تلك العبارات البصرية، فقط من يريد أن يفتح باب حلال من يستطيع إتقان تلك اللّغة الجميلة، لغة العيون بين الحبيبين من أرقى اللغات، ألفاظها معنوية، وهي تتجسد في الأفعال العالية الأخلاق.

لم تخرج سيدة اليوم إلى الدكان كعادتها وصافي ينتظر، جاء في الصباح الباكر ولم تمر، وانتظر ساعات ولم تظهر، فاِنتابه القلق وخالجه الشّعور بالشوق إليها، فضعفت نفسه وصار يقترب من البيت ليسأل عنها، وهو لا يعلم أي جرم سيرتكب لو دقّ الباب، يقترب تارة وينظر وراءه، حتى وصل الباب فمد يده، فإذا بالباب يُفتح وسيدة تهم بالخروج، والخالة من ورائها، هنالك صدمت سيدة وجفَّ الدّم في عروقها وثقل لسانها وازدادت ضربات قلبها ووقفت ساكنة، أمّا صافي فلم يجد ما يقول وظلّ مسمرا في مكانه، حتى تأولت خالتها الموقف وقالت: ماذا تريد يا هذا؟ فرد عليها يا سيدتي أنا أجمع الأثاث المستعمل الذي لا يحتاجه الناس، فإذا كان لديك شيء لا تستعميلنه آخذه منك، فقالت له إنّه لا يوجد ما يبحث عنه، وسيدة من وراء خالتها تبتسم من الموقف المحرج، ومرّ الأمر بسلام.

وسارت باقي الأيام كما عهدوها ثم اختفى صافي من المكان ولم يعد، فمرت الأسابيع وسيدة ترقب كل يوم أن يعود طيف الفتى الذي أحبّته بعينيها، وجرى مجرى الدّم في عروقها ولم يعد، حتى تبدّل حالها وهزل جسدها، وخارت قواها، واستسلمت للإرهاق والمرض، فسارت خالتها تقلق من ما يحدث لها، وعادها أخوها وأشفق لما آلت إليه، وفي ذلك الأمر نستذكر من لا ولي له إلا الله يمرض، فلا يجد يد الأم ويشقى، فلا يحمل عنه العناء أحد، ذلك ما عانته سيدة؛ مرضت فلم تجد العين الساهرة والحنان الذي

تحتاجه لتبرأ، إنّها قسوة الحياة مع المعاناة ونعم التّربية، بلا أب وأم يكملان مسيرة الحياة معها، وهو الأمر الذي يقدره الله ويقضيه بأن يحفظ من يشاء ويربيه نعم التربية، فالله لا يفرط في خلقه، إنّه يردعنا عن المساوئ ويدفعنا إلى المحاسن، ولكن أنفسنا لا تريد إلا متاع الدنيا، وصارت سيدة هزيلة الجسد ضعيفة القد، ورغم كل ذلك إلا أنّ الخالة كانت تجدها مرارا في المطبخ تغسل الأواني أو تنظف الأرض أو تقوم بأعمال المنزل، فتنهرها بنبرة الخوف والشفقة عليها بأن تتوقف، لكن سيدة ليست تلك الفتاة التي تهزها المصائب وهل فقدانها لوالديها هزّ من رباطة جأشها وأغفلها عن ممارسة الحياة التي أرادها الله لها! وفي ظلّ هذا الاستسلام وبين آهات الآلام دقّ الباب داقٌّ، فهمت خالة سيدة لفتح الباب، وإنّها المفاجأة شيخ وعجوز وفتى معهما، يدخلان من الباب والخالة تزوق في الترحاب، وسيّدة لا تعرف بما يحدث، فالفتى ما كان إلّا صافي والعجوزين ما كانا إلا الوالدين، فضيفتهم الخالة وأحسنت إليهم، فأخبروها بأنهم قدموا لخطبة بنتها، فسرّت بالأمر وشكرت سعيهم و أخبرتهم بأنها كابنتها ولها أخ ستسأله وستسألها، وإنّها مريضة ولهم أن يعودوا لها في ما شاؤوا من الأوقات، فتفاهموا على يوم من الأيام، أمّا سيدة وبعد خروج أهل الفتى صافي سألت من جاء فحكت لها الخالة ما حدث بالدار، فتساءلت عن الفتى فقالت لها يقال له صافي، فظنت أنّه من كان يأتي قبالة بيتهم فسرت وتمنّت أن يكون

هو وعادت الحمرة إلى وجهها وسارت النّظرة في جسدها وتعافت الفتاة فكأنّما لم تصب بأذى، حتى احتارت في شأنها خالتها وتساءلت عن ما بها، وجاء الأخ وتساءل عن ما وصلوا إليه، وجاء اليوم الموعود وعاد أهل الفتى، فرأته سيدة من النافذة فأغمي عليها من الفرح والسّرور والخالة تجري بالعطر وماء الزهور، فجلس أهل الدّار وأهل الفتى، فتمّ التّوفيق واختاروا يوم التوثيق.

إنّ سيّدة وصافي عاشوا حياتهما كأيّ زوجين؛ فأنجبا أطفالا كأنّهم الأقمار وبنوا بيتهم بحب وسرور، وكأي بيت من البيوت، تتعثر العلاقات مرة وتزدهر، وهذا من فضل الله أنْ وفَّق سيدة لأن تعيش في بيتها مع زوجها، ورغم الشّدائد ورغم كل ما يحدث، فسيّدة صامدة واقفة في وجه كل أمر عسير، فتحية لمن كانت أو كان في مقام سيدة وحمد الله على نعمه.

صديقتي من العاصمة

بعد أنْ مرّ شهر الصيام وتغافرنا مع الجيران والأصحاب قررت أنا وعبد القادر السّفر إلى عاصمة الجزائر، في صباح يوم **23** حجزنا تذكرتين باتجاه المحروسة، في النّهار ظللت نائما بين جدران غرفتي أتمتّع بالمنظر الذي سأشتاق إليه مدّة من الزمن وأنا أعانق نظرات أمي التي لم ترد مني السفر، ماذا تفعل يا إنسان؟ إنّها الأم ذات الكبد الرّطب، والقلب الرّهف، العين الدامعة في الأحزان والأفراح، توسّدت يومي بنوم رقيق وفي المساء أعددت العدّة ومهدت للخطة وأقمت في البهو أتراشق خطاي فيه، أعدّ الاشياء وأزيد وأنقص حتى حان موعد الانطلاق.

00:21 انطلقت بعد أن ودّعت تلك الحبيبة تلك الأم الرّائعة، وكان قلبي يقول أنت مفارق لأمّك لمن تتركها؟ ولكن أعلم بأنّ الله حاميها وأبي وإخوتي لن يفرطوا فيها، أوصلنا الوالد إلى المحطّة البريّة في مدينة مغنية وودعناه.

وبعد مدة من الانتظار قرر السّائق الانطلاق، فأخذ كل شخص مكانه ولم يصر بيننا وبين العاصمة إلا **14** ساعة.

كانت الطريقة طويلة والحال من المحال أن يساعد على المنام، فتقلّبنا تارة ونمنا تارة، وكنا ننزل في توقّفات

الحافلة ونواصل إذا واصلت وصلنا، ندخل ولاية ولا ندري أين نحن حتى ندخل أخرى وهكذا سرنا وتنقلنا.

في صباح اليوم الموالي **24** جويليّة **2016** الساعة **00:8**، العاصمة، انتقلنا من حافلة إلى حافلة أخرى لتنقلنا بدورها للخرّوبة، سرنا مدة من الزمن لنقترب من نواحي القصبة.

ساعة من البحث في أوّل النّهار عن مصير أول اللّيل، إنّه البحث عن المبيت، تجولنا في مساحة واسعة من العاصمة والتّعب مسيطر علينا، الشّرطة في كل مكان المحاكم، والمؤسسات الحكومية، الكاميرات والإعلام، والطّرقات والقانون المسيطر مكان آخر في الجزائر الواسعة، لهجة مختلفة وناس مختلفون كأنك لست في بلدك الذي جئت منه قبل **14** ساعة، لولا تلك المساجد واللّهجة العربية لمَا قلت أنا في عاصمة بلدي.

ساحة الشهداء، آخر مكان لنا في البحث الطويل على نزل البدر لصاحبه ذو اللّكنة التونسية أظنّه كان من عنابة، سعر مناسب ورف مناسبة لن نفوت هذه الفرصة، نزعت حقيبتي من ظهري التي كادت أن تقسمه ورميت بنفسي على السّرير ثم اتصلت بوالدتي: ألو أمي وصلت، فرحت تلك الأمّ بصوتي حتى أنّها كادت لتعانقني من الهاتف، أو هكذا أحسست لأنّها أمّي.

وسرعانما خرجنا أنا وصديقي لنتجول في أجزاء العاصمة الصغيرة على الخارطة الكبيرة في الواقع، انتقلنا

إلى المقهى، ما ألذّ القهوة في العاصمة، إنّها تزفّ رياح الخمسينيات من القرن العشرين، وبعد مدّة ذهبنا باتّجاه مركز بريد الجزائر **grande poste** وهناك حدث ما لم يكن في الحسبان...

اتّصلت بفتاة تعرفت عليها في الانترنت وقد كنا نتحدث ساعات طوال، نتمازح ونطلق النّكات ولم نكن قد التقينا من قبل، وكنت قد أخبرتها بأنّني قادم إلى العاصمة، فرحّبت بي بصدر رحب، وحين ردّت على الهاتف أخبرتها بمكاني فأعلَمَتْني أنّها قادمة.. لحظات تدرك المواقف وتعصر الشّجون، هي تلك الهنيهات التي ننتظر فيها أصدقاءنا الذين سنلتقيهم ذات يوم، ورغم أنّنا قد كنا تعارفنا في مكان ما، إلّا أنّ غربة موقف اللّقاء وجها لوجه ستجعل الشعراء يتلعثمون، والأدباء يتخبطون، والخطباء يلجمون، انتظرنا أنا وعبد القادر تلك الدقائق وهي قادمة تراسلني الرياح وتأتيني بزفيرها، تلامس عينيّ صورتها كل لحظة، وبينما نحن ننتظر قررنا أن نزور في الرصيف المقابل إحدى الفعاليات، وفيه أُقيم أسبوعا ثقافيّا للتعريف بتراث البوليساريو (الصحراء الغربية) فوجدنا الأمر جميلا؛ حيث أنّ خيمة قد نصبت وجلس فيها مجموعة من الصحراويين وفي أيديهم فناجين الشّاي وحولهم جلد الغنم (الهيدورة) وفي الأرض مفروشة زرابٍ من حرير أو هي مثل ذلك، بينما في خيمة أخرى توجد أدوات تقليدية للصحراويين وعلم صحراوي أخذت صورة به، ومن ثم انتقلنا إلى رصيف مقابل

آخر وجدنا فيه مجموعة كبيرة من الباعة بضاعتهم عبارة عن كتب مستعملة باللغة العربية والفرنسية، مكان رائع، سأشتاق إليه كلما نظرت إلى صوري فيه وكلما تذكرت...، إنها سعاد اتصلت لتسأل أين نحن وظننت أني المحنك فقلت لمَ لا أخادعها ! فسألتها أين هي حتى ردت أنا أنظر إليك، وكان في نيتي أن أجلس وأتركها تبحث عنا لكنها كانت عاصمية رغم كل شيء.

التقينا وكأننا اِلتقينا قبل سنوات ولم يزل اللّقاء بيننا، لا أعرف ما حدث بالضبط ولكن كانت ذات رونق آخر، أحببت تلك العفوية التي صحبتها من أول كلمة بل من أول حركة قامت بها معي، لقد جعلتني أرتاح لأفعالها وأقوالها.

كانت هذه إرهاصات اللّقاء وبدأنا الرحلة في العاصمة، وفي طول المدّة نتجاذب أطراف الحديث وأسألها لماذا لا تتكلمين كالعاصميين؟ فتقول أنها ليست من العاصمة، إنّها حقا فريدة جمعت غرب الجزائر بشمالها، تلك الضحكات التي كانت تلقيها لازالت تغرد في أذنيّ، تلك النّحيلة التي أهلكت نفسها بصيام بلا أجر، كنت أخاف عليها من تفتت عظامها قبل قلبها رغم أن انكسار القلب أصعب، ولكن المهلك حقا أن تكسر صحتك وقلبك فلا تجد من يعينك على سد رمقك، نظراتها تحمل الكثير من الألم وبهجتها تقص الكثير من الأحداث الموجعة، كانت تضحك من كل قلبها رغم أنّي كنت في مرات عديدة أسخر منها وليس

لازدرائها ولكن أمزح وهي دائما تضحك وتبتسم غير مبالية، إنّها الأحزان، من الطريف أنّها لا تحب شرب الحليب ولكن قلبها صامد وصلب في مواقف الصعاب، وهو لين ورطب ينام فيه من تثق فيه، ثم قررنا العودة للنزل بعد أن قضينا يوما رائعا وعادت هي المسكينة إلى منزلها البعيد، وفي اليوم الموالي ذهبنا إلى مقام الشّهيد، وفيه قصة طويلة...

تلك الذكريات ستخلد العلاقة التي جمعتنا، وأذكر قصّة طريفة حدثت لنا لما ركبنا في الحافلة؛ حيث قال الخادم بولوغين وبدأ ينادي بها فقلت له: بوغرارة !! فلم يفهم عليَّ هو ولا من كان يركب، بينما ضحكنا أنا وصديقي، ثم أخبرته أن يقلق فبوغرارة بلدية تقع في الغرب وبها حمام من أشهر الحمامات، وذهبنا نستكشف العاصمة ومعنا سعاد أو كما يحلو لها أن تسمي نفسها "الجابونية" قبل أن أقص رحلتنا إلى مقام الشهيد، دعوني أخبركم عن "الكنيسة "كاتدرائية نوتردام أفريقيا أو السيدة الافريقية، لقد ذهبنا لتلك الكنيسة، أمام كل بيوت الله التي يذكر فيها اسمه تشعر بتلك الراحة، لقد تجولنا حول ذاك المكان الذي يحرسه مجموعة من الشرطة، فالمسيحيون أحرار في الجزائر ولا يتعرض لهم أحد وهم آمنون ولولا ذلك لما استدعى الأمر رجال الأمن يسهرون على حماية كل شخص لا لمعتقد يعتقده، وإنّما الانسانية تجوب أنفسنا، انتظرنا قليلا حتى رأينا قسًّا أسودا دخل الكنيسة وقد ساق سيارة قديمة، فدخل ودخلنا من بعده كأنّنا ندخل إلى متحف

رائحة العطور تلك كأنها تذهب بعقلك، وتجعلك في عالم من الإيمان المقدس، نعم إنّه الإيمان الذي يحمله المسلم اتّجاه كل الديانات السماوية والمسيحية، دين سماوي يأمر بعبادة الله وحده فكيف لا نشعر بالأمان في بيت الرّب؟ في المدخل على اليمين مكتب صغير فيه امرأة أجنبية مبتسمة دائما؛ عيناها خضراوان، بيضاء البشرة، تصفيفة شعرها مثل الذّكور، عجوز كبيرة في السنّ ولكن النّظر إليها يبهجك، فهي لا تبدي أيّ غضب أو حزن ولا تتكلم إلّا بالفرنسية، دخلنا مباشرة إلى قاعة الصّلاة المليئة بالتّماثيل والصّور لمن يظنونه المسيح عيسى، وهو على صليب تعلو رأسه حلقة من الزهور وجسمه العاري الضّعيف ولا تستره إلّا قطعة قماش في وسطه والدّماء تسيل من جسمه كله، ذلك ما يسمونه ببركة الصّليب أي أنّ المسيح منح بركته في الصّليب حين وقع فيه أسيرا وقتل عليه، وأنّه خلص أمّته المسيحية من الآثام والعذاب حين دفع ثمن أخطائه، وزدنا في تجولنا وكانت صور العذراء مريم تملأ المكان، كانت هناك ثريا جميلة مضيئة بينما في المقدمة توقد شموع صغيرة لا أعرف ماهية طقوسها، لكن سعاد الفتاة الشقية حاولت أن تشعل إحدى الشمعات، لكن ذلك الرجل قام بنهيها بصمت وذهب إلى مكان ليس ببعيد وأحضر شمعة جديدة، وأخبرها ان تشعلها، أظنّهم يتمنون شيئا لما يشعلون تلك الشموع، بقينا نبتسم فيما بيننا ولم يكن همنا أن نفسد شيئا، فقط زرنا بيت لله الذي ليس كبيوت الله التي نعرفها، كان من دين

آخر، لقد كان ذاك الرجل عربيا وهو جزائري مسيحي، قمت بسؤاله عن الانجيل فأخذني إلى غرفة المكتب الذي تستعمله تلك المرأة، فدخلت وقلت السلام عليكم وردت "بونجوووغ" وهي لاتزال مبتسمة فبادلتها بابتسامة نقية صافية، فسألت عن ثمن تلك الاناجيل فصار ذاك المسيحي يعدد هذا بألف دينار وهذا بخمس مائة وهذا فيه يوحنّا وهذا مختصر لوقا وهذا به الأناجيل الأربعة، والتورات، والعهد القديم، والتلمود، فهممت أن اشتري تلك السخة الورقية، وإذا بعبد القادر وسعاد يمسكانني ظنّا منهم أنّها قد تؤثر في، فمنعوني من الشراء فأحسست أنّهم قد ارتابوا في أمري فتراجعت عن القرار، لكن أن تجمع العاصمة بين الدين والسياسة وسط تعايش سلمي لمختلف أطياف المجتمع فهذا ما يبني المجتمع المتماسك، الثورة التي أحيتها الجزائر عاثت في عقول الأحرار صلاحا، جميل أنّك تلتقي باليهودي والنّصراني والمسلم وهم يحتسون القهوة ويتكلمون عن جمال حديقة الحامة، أو ترى الأمازيغي والعربي يعملان معا في البناء والتّخطيط لمستقبل الجزائر، تلك هي بنية المجتمع الحضاري الذي يؤمن بالعقيدة السليمة التي تنهى عن الفساد وتأمر بالمعروف حتى لمن يخالف ديننا ولا يتعرض لنا بسوء، والآن حان موعد الخروج وذهبنا في طريقنا إلى مقام الشهيد.

حينما كنت أنهض صباحا في المنزل أجد بشاشة وجه أمي، كأنها أذكار الصباح، لكن في العاصمة نهضنا أنا

وصديقي وسبقته إلى الخارج لأجد سعاد تنتظرني، لقد بعثت دفئا في الصباح الباكر، تلك السعادة في عينيها لم أعرف من أين حصلت عليها، غير أنني أعلم أنها سعيدة بصحبتنا أو لمّا كانت تأتي إلينا وتذهب معنا، أظنها كانت تثق فينا ثقة عمياء، كدت أناديها "حبيبتي" رغم أنها تستحقها إلا أنني لا أستحق هذه الفتاة، فهي لا يجب أن تخدع ولا أن تتألم، يذكرني هذا بفاتنة سمراء لم يمر عليّ يوم إلا تمنيت أن أستنشق الهواء الذي تستنشقه، ولكن سعاد كانت معي وغابت تلك، بلكنتي المغناوية ولكنتها الغربية صنعنا قصصا جميلة في عاصمة الجزائر، حتى جاء عبد القادر الذي كان قد كسر نظارته فنزل مغتاظا، وانتقلنا إلى محطة تافورة...

دخلنا المحطة وسرنا من الوسط إلى محطة "المعدومين" في حسين داي وعدنا إلى الحامة في العناصر، ارخبيلات الشبكة إنّها العاصمة يا سادة، كل شيء يمشي كآلة، إنّ الناس هناك يسابقون الزمن، فرأينا شموخ المقام في الأعلى، إنّه يرمز لشموخ الشهيد، فاستقلينا تيليفيريك المقام التذكاري ووصلنا إلى باحته الواسعة، مساحات شاسعة، مدينة أخرى في مدينة الجزائر، معارض دكاكين، الكل يلتقط الصور، الكلّ مسرور، إنّه العالم المثالي، إنّها أفلاطونية الجزائر، من كل الولايات يحجون إلى مقام الشهيد، تباطأنا لتأخير زيارة المقام ونحن في ساحته لكي يبقى لنا كل الوقت له، واتّجهنا نحو متحف المجاهد، إنّ ذاك المتحف عالم مغاير، عالم الجزائر من الصفر الى

1962 أو أكثر، ترى فيه أجدادك من الأمازيغ ومن العرب والمجاهدين والمقاومين، آثار الجزائر من نوميديا إلى البايلك، ثم الحكومة المؤقتة فالجزائر الحرة، لباس الثوار وأسلحتهم، إنجازات سنون العز والجهاد ضد المستدمر الفرنسي، ستعيش الجزائر الطاهرة بلا مشاكل طرقات ولا مشاكل سكن ولا أزمات دبلوماسية ولا حركات عسكرية، ستعيش الجزائر كما يجب أن تعرفها طاهرة من ذنوب وخطايا سكانها، مجردة من ألامهم وحزنهم، وصامدة في وجه انشقاقات التاريخ، تلك الصور وتلك الأدوات تعبر في صمت عن ما يخالجها وتروي التّاريخ بأعمال العظماء من أهلها، خرجنا من ذاك المكان ورائحة التّاريخ الطّرية ملتصقة وثابتة في جلودنا لأنها تتغلغل عبر القماش وتسري في الدّماء، من لا يحب الجزائر لا يحب صديقه من الجزائر ولا يحترم صديقته من الجزائر، لأنه أناني لا يحب أحدا ولأنه مجرد خائف فلن يقول أحب الجزائر، وكلما عشنا وكلما سرنا غرقت أرجلنا في دماء الشهداء، فكل الدماء نجاسة إلّا دماء الشهداء، دماء زاكيات طاهرات في الجبال وفي السّهول وفي الهضاب وفي المدن وفي كل مكان، واتّجهنا إلى ذاك المقام ذاك الصرح العظيم، مشروع أناره الرّاحل هواري بومدين وأقامه شاذلي بن جديد سنة 1982 وبمناسبة الذكرى عشرين لاستقلال هذا الوطن، هذا الإرث الذي كابد المصاعب بأبنائه وباع أهله حياتهم لله حتى يعيش أبناءهم في رخاء، مقام الشهيد هو دائما تلك الذكرى التي تخلد 132

سنة من الاستدمار بل من الصمود والبقاء، جزائر ألهمت الشعراء وألقت بقرارها إلى العالم فاحتارت الأمم في هذا الشعب الأبيّ في هذه الأمّة القوية، ولم يقوها إلا الإسلام ولم يصنع قرارها إلّا الله، لأن هذا الشعب أخلص لله.

كنا نمشي أنا وسعاد تارة ونلتقط الصور تارة وهي سعيدة، شساعة الموقع كانت أضيق من خاطرها ذاك اليوم بل إن المحيط لن يسع ذلك السرور، كنت أنظر إليها عدة مرات، وأتأمل في جرأتها وأبحث في ما تخفيه، الحقيقة إنّي أخاف عليها، كنت أتمنى لو أني أراها كل يوم حتى أصرخ في وجهها "لا تفعلي هذا" أو أنظر إليها نظرة استياء من فعلها أو قولها، ليس تسلطا وليس تجبّرا لكن هو الاهتمام بمن نحب، فلا يمكن أن نترك مجالا للدموع، نسطر الواقع ونرقع الممزق فلا نريد سقوطا، سعاد فتاة رقيقة، لقد عرفت أنّها سريعة الانكسار، سريعة البكاء لكن...

ليس أمامي وليس أمام أحد، إنها تبكي وحيدة، ربما تبكي وهي نائمة على سريرها وتستمع إلى موسيقاها، تعشق الموسيقى فهي صديقتها الوحيدة، كل يوم تحتسي فنجانا من القهوة والموسيقى في أذنيها، وقلب منفطر وخاطر منكسر، ودمعة في العين تنتظر تلك الوحدة، تنتظر الليل في غالب الأحيان، أهذا حقا يومك؟ لن تجيب لأنّه حقا يومها.

في ذلك اليوم كانت لتنسى كل ما لديها من مشاكل، ربما لم يلاحظ عبد القادر صديقي أن صديقتنا سعاد أنّها

قد تعاني لأنها كانت جدّ بلهاء وأحب أن أدعوها بالبلهاء لأنّها بلهاء، لكنّي أحب بلاهتها، فهي تكشف ما في قلبها دون أن تدري، أنا أرى رسائلا في بلاهتها، وأفك شيفرتها لكنها لا تسمح لي بأن أساهم معها في أفكارها، لربما تحب الألم لكني لا أحبّ أن أراها تتألم، لا أحب ان أرى أحدا يتألم،المعاناة خانقة، إنها كحجارة مقام الشهيد جامدة لا تتحرك وصاحبها كطول المقام في السّماء شامخا ولكنه مبني بآلام أمة، ويحيي آلام أمةٍ، الجميل فيه أنه يبعث على الحب والسلام، لكنها تريد الموت بلا معنى لحياتها، هكذا نزلنا من ذلك الصرح إلى حديقة تجارب الحامة وفي بنات أفكاري سعاد تتراشق بكلمات أشقها شقا، عندما تنزل من التيليفيريك ترى ضآلة حجم الإنسان وتعي حقا أن عقولنا أصغر من حجمنا حقا وأنّ حجمنا أصغر من غرفة التيليفيريك وأن تلك الغرفة أصغر كذلك من حديقة الحامة... ولا أريد أن أخبركم عن الأصغر إلى الأكبر لأنّنا سنخرج من الأرض ونتّجه إلى المجرة، ولكن ما أحاول قوله أننا يجب أن نفكر حقا فيما نحن عليه وأنّ قوّتنا تكمن في وحدتنا وتلاحمنا، والإبداع سيظهر بفضل ذلك الموقف، من الأعلى ترى الناس نقاطا في الأرض حتى تلك السيارات تقول في نفسك: تلك تقلنا، وتلك تقتلنا؟

المساحة الخضراء ترسم لك جوا لطيفا وتجعلك مسرورا، إنّ الأخضر رمز للسلام حقا، ورمز للأمن والاستقرار، هذا ما نرجوه دوما للجزائرالحبيبة، لا ألوم

أولئك العاصميين على آليتهم فهم تعودوا على أنّ الوقت قاتل، بينما تعودنا على أن الغد قادم لا محالة ولم نعِ أبدا أنّ غدا سيكون دوننا ذات يوم، رفقة سعاد وعبد القادر سرنا في أدغال الحامة، حديقة التجارب، عائلات، أهازيج، مطاعم، أشجار ومجارٍ مائية، إنّها الغابة في العاصمة أفضل مكان تشعر فيه بالطمأنينة بين الأوراق الخضراء المتناثرة، لن تكتفي فيه بحضن امرأة ولا ابتسامة متفائل بل ستسير في ظل أشجاره وتقول هل هذه جنّة الجزائر، اسمع أنّهم يقولون أنّك ستعيش الجحيم في الجزائر، لكن عشت أحد أفضل لحظات حياتي ليست كالجنّة ولكنّها حقًّا ليست الجحيم "أبدا".

كنّا نمشي ونلتقط الصور ونسخر ونمزح، وكانت سعاد دائما تبتسم، وتضحك، رنين ضحكتها يداعب مسامعي وأنا أكتب هذه الحروف وكأنّها بجانبي تضحك، أظنني تأثرت بتصرفها، عفويتها ألهمتني كثيرا من الاشياء التي كنت غافلا عنها، لكنّها أزعجتني بأعمال لا أريدها أن تتخلى عنها ولكنّها تفعل، في دعائي أتمنّى لكل أصدقائي الخير وسعاد واحدة من الأصدقاء الذين أرجو لهم دائما الخير، ليس لأنّها فتاة وصديقة، بل لأنّها سعاد فقط، لا يجب على المرء أن يكتفي بالأطلال من الشبّاك ويبكي على الرّاحل، إنّما يجب عليه أن يستعيد ما رحل عنه، وإلّا فلن يبقى هنالك أي لذّة للعيش ولن تدوم تلك الآلام، فألامّ الأحبّاء ممتعة إذا صمدت محبة بعضهم، وإلّا فلن نعد الفرقة نتيجة الخصام

بل هي نتيجة عدم التّوافق والصّدق في الحبّ بين الطّرفين، لا تقل أبدا أنّ ذلك الحبّ مؤلم لأنّه ليس مؤلما، الأرواح تتألم ولكن الجسد يبقى جسدا ثقيلا فقط بلا روح، سعاد تحب كل الناس وهي تتألم ولكنها لا تتألم بسبب ذلك الحب، في كل حركة أتألم كذلك ولا أساس لمبدأ الحب والألم في الأمر، وعبد القادر يتألم كذلك ولكن لا يتألم بالحب، لأن الحب سلام، صديقتي من العاصمة، إنّها من الجزائر البيضاء رمز الصفاء والنّقاء، ورغم ما قدمت من دماء، فإنّها ظلت وأصرّت على البقاء بيضاء.

وسيحين موعد الرّحيل قريبا والشّوق للعاصمة والشّوق لسعاد وابتسامتها بدأ قبل أن يكتمل الأمر..

آخر ليلة في العاصمة

السّاعة الثّامنة صباحا في محطة القطارات الجزائر العاصمة، لحظات قبل انطلاق القطار نحو وهران، أعيش رفقة شوقي لهذه البلاد، محاولا جمع كل ذكرى طيبة، ملوّحا بمصورتي في كل اتجاه، إنّها العزيزة التي لا تريد أن تفارقها، لكن لابد لك من ذلك، في هذه المرحلة ورغم أنّي كنت عازما على العودة إلى مغنية إلا أنّني علمت أن أمّي كانت مريضة وصارت طريحة الفراش في المستشفى، فقلقت من هول الخبر واتّصلت بوالدتي التي قالت أن ليس هناك ما يدعو للقلق، ولكن بربكم لا تقلق وأنت تنفصل عن نفسك حولي **700** كلم، إنّما بعد اتصالي بها ارتحت وهدأ بالي قليلا، ثم واصلت تشدق الذكريات، أتسوّل بركة الزوايا في مدينة الجزائر، التي في كل معلم من معالمها تحكي الثورة، ورغم الثورة التي كانت في قلبي إلا أنّني تماسكت، وأنا أذكر ليلة أمس أذكر ذاك الأمس، يوم رائع أخير رفقة الفتاة تلك، رفيقتنا المجنونة التي رسمت خريطة جديدة في عقلي وسرحت في قلبي، إنّها التي رسمت تلك المتاهة في حياتي فلا أستطيع، التملّص من التّفكير في حياتها لا أدري ما الذي يجعلني أفكر فيها، ربما لأنّها كانت صديقة مقربة في أقصر وقت، أم أنّها شغلتني بحكاياتها، أيّتها العصافير احملي سلامي إلى العاصمة وأخبريها أنّني وصلت بسلام، أيّتها الغيوم احملي

أنفاسي فما عدت أطيق شوقا لعودة إلى تلك البقعة، يا جزائر احمليني وضعيني في تلك العاصمة أشمّ نسيمها وأسهر على قمرها وأنام في هدوئها حتى أصبح في غمارها، إنّها تلك الأرض وإنّها تلك الصداقة، بل ذاك هو الحب العفوي الذي يجدر بنا أن نقدمه لا التّضحيات الحمقاء التي تجعلنا مفترسين، هكذا انتهت قصتي مع صديقتي ولكن لم تنتهِ صداقتي في قصتي، لما كنت في تلك العربة ظللت أشاهد في النّافذة العاصمة وهي تزول، وهي تتراجع، وكان مشاهد الفيلم تعود وتحترق لكي لا أشاهده إلا في مرحلة أخرى ولا أستردّه إلا في سنوات قادمة، بلحظات أحلى بما تحمله الأشواق من معنى، سلمت من ولدتك وآمنت روحك بإذن الله يا عبير الصداقة لن أنساك ما دمت حيا.

رحلة ميّت

قمت في الصّباح وتوضأت ولكن الماء لم يكن كما عهدته فصلّيت، ومررت على

أمّي التي كانت تعجن، وصبّحت عليها وأنا ابتسم، لكن لم ترد عليّ وظننت أنّها لم تسمعني وجلست أردّد بعض الآيات التي أحفظها، واشتقت لأمّي فذهبت إليها:

- يا أمي كيف أصبحت؟ وهي لا تجيب.

- أمي انت غاضبة مني؟ وهي لا تجيب

- أمي هل فعلت شيئا أزعجك؟ وهي لا تجيب مشغولة بعجينها.

ثم استدارت وتبسمت في وجهي، فقلت منورة يا أمي لماذا لا تجيبين؟

- فقالت: لماذا استيقظت الآن!

فهممت بالرد عليها: قمت... ولم أنه الكلام

فجأة شخص تحدث من ورائي فأجابها (بكسل) قمت لأصلّي الفجر رباه من هذا الذي تكلم من ورائي؟ استدرت لأجد أبي

- فقلت: على الأقل سلّم فقد أخفتني يا أبتي، وهو كذلك لم يرد فغضبت وذهبت إلى الحاسوب ولكنه لم يشتغل فظننته فسد حتى سمعت أمي تقول: هل صلى زكريا؟

- فناديت نعم يا أمي

فسمعتها تمشي في الرواق وتدخل غرفتي وتنادي بصوت هادئ: زكريا، زكريا وأنا خلفها أقول ما بك يا أمي؟ ها أنا ذا وراءك

فنظرت خلفها ودخلت إلى الغرفة ووقفت على فراشي ونادت مرة أخرى: زكريا، زكريا !

وأنا خلفها أتكلّم ما بك يا أمّي ماذا يحدث لك؟ أنا خلفك.. عن ماذا تبحثين في فراشي؟

انحنت أمّي إلى فراشي وكأنّها تهز شيئا ما وتقول: يا ولدي قم لتصلي أرجوك، يا زكريا قم يا بني لا تمزح معي هكذا، قم قم !!

وأنا في باب الغرفة يحترق قلبي وأنا أنظر لها وهي تفعل ذلك، وأقول يا أمي هل جننتِ؟ هل ذهب عقلك؟

ونادت فجأة: يا زكريا يا ولدي وبدأت تصرخ

قام إخوتي وهرع أبي إلى الغرفة وأنا أقول لهم: لا بأس اهدؤوا، أظن أن أمي غاضبة فقط

ولكنهم لم يأبهوا لكلامي وانطلق إخوتي ينظرون فإذا أنا ممد على السرير.

جف الريق في فمي وأحسست ببرودة في أطرافي ليست كالبرودة التي أعهدها، وغمرني الفزع وناديت من هذا؟ من أنت؟ أين أنا؟ أمّي، أبي، إخوتي أنا هنا من هذا، إنّه شيطان، إنّه يتمثل في فقط ها أنا هنا، ولا أحد يستمع إليّ ولا يلتفت أحد لي، وبدأت أمي تمسح على وجهي وهي

تتكلم معي وأنا خلفها واقف أقول: نعم يا أمّي استديري فقط، وهي تمسح وتبكي وتنوح وتعدّد، وإخوتي يبكون حتى عبد الرحمن أحسّ بخطب ما فبدأ يصرخ وقد استفاق من نومه الملائكي عند الفجر، وأمسك أبي على رأسه لا يعرف ماذا يفعل.

أنا ميت، وذاك جسدي واستسلمت وأنا أنظر لنفسي واقفا، ولا أرى سوى جسدا ممدا جثة رطبة بدأت تتصلب وعيناي مغمضتان، ولون أصفر لا دم ولا عرق، لم أعرف حتى أنّي توفيت..

صعد الجيران وجاؤوا إلى العائلة المصابة يقدّمون يد المساعدة، فهم يفعلون ذلك دائما،

لما بزغت الشمس بدأ النّاس يحضرون يعزون ويثنون وأنا واقف في الباب أنظر إلى تلك الوجوه، بعضها حزينة وبعضها لئيمة، يريد الاستفسار فقط، كيف مات ولماذا مات؟ وآخرون يعرفونني ولا أعرفهم، شغلت أختي القرآن الكريم، فذهبت إلى أمي لكنّي وجدتها حزينة دموعها تجري كأنّها أنهار تسقي المقلتين فشقّ عليّ منظرها، عانقتها وهي لا تحس بذلك وبكيت لحالها وخرجت فوجدت أبي وكأنّه يكابر ليخفي حزنه فقلت: يا أبي وهل القرآن الكريم يشغل إلّا في الأحزان؟ وبينما أنا أكلم أبي وهو لا يسمع طبعا، دخلت عمتّي والتي كانت تحبني حقا فهي ربّتني مع أمي إذا بها تصرخ وتنوح وتشقّ وتندب، فخرجت مسرعا أمسكوها، أمسكوها لا تفعلي ذلك.. وأنا ملتصق بيديها لا

أستطيع إخضاعها حتى خرجت أمّي وتعانقا وصرخا، وزادت عليَّ ظلمة المنظر فقهرني السّتار وأنا أريد إسكاتهم لقد آذوني ببكائهم الصّاخب فليتهم ضحكوا وما بكوا لكان أهون عليّ ذلك المنظر، ومن بعيد بدأت ألمح أصدقاء الجامعة؛ حضر بعضهم يعزي مصاب عائلتي وقد استقبلتهم وأنا أعانق مرحبا، مرحبا بالصحبة مرحبا.. صديقي عبد القادر كذلك قادم، فرحت فرحا شديدا، وقفت أمامه وقلت: لقد سبقتك وأنا سعيد لأنّك حضرت، أرجوك اعتنِ بأمي وإخوتي وساعد أبي في تدبّر بعض الحاجيات، فأنا لم أعد موجودا، كان يوما شاقا جدا، اقتربت صلاة الظهر، أخذوا جسدي من قبل ليغسل، وغسلت وروحي تتبع جسدي فرأيت ما رأيت وأرعبني منظري العاري وخفت من حالي.

ثمّ أذّن المؤذن...، و قامت الصّلاة وركع الإمام فركع المصلون وسجد فسجدوا وسلم فسلموا

ثم قال: صلاة الجنازة على شاب، ووقف الإمام وبعده صفوف في أوّلها أبي وأعمامي وأخوالي وبعدهم أبناؤهم وأصحابي، وبعدهم أناس لا أعرفهم، فصلوا عليّ صلاة لا ركوع فيها ولا سجود، ولما انتهوا حملوني على الأكتاف وخرجوا بي من باب المسجد نحو المقبرة، فارتعد حامليّ وخفت المكان الذي اتجه اليه، هل هو روضة أم حفرة؟ وهل منكر ونكير سيتساهلان معي أم أنّهم سيجعلانني أعايش جحيم أول منازل اليوم الآخر؟ وظللت أتساءل وأدخل

جسدي وأحاول النّهوض وأنا أدعو الله وأتضرّع إليه بروح خائفة منه.

وبتّ أقول: هل يا ترى قبلت صلاتي؟ وهل رفعت صدقاتي؟ وهل أُجرت على أعمال قمت بها؟ وهل زادت حسناتي؟ لقد فعلت كذا وكذا وعملت أشياء حسنة هل هي مقبولة؟ ثم تذكرت المعاصي والذنوب وبكيت وتساءلت هل كنت أتوب؟ ووصلنا باب المقبرة فبدأت روحي ترتعد ارتعادا، وحين دخلنا وجدنا أقواما من قبلي وأرواحا مثلي، بعضها حديث العهد وآخرون قدماء يقفون ناظرين لمن هذا النعش ومن الجديد؟ وأنا أنظر إليهم أسلّم عليهم وعلى من أجده في الطريق نحو قبري، لعلّي أنسى هول ما سألاقي، لقد نسيت دمع أمّي ونسيت حزن الأب وهلع الإخوة، لقد نسيت الأصحاب ونسيت الآلام، ونسيت كل شيء أساتذتي وكراريسي نسيت أيامي وفكرت في أهوال يومي ذاك، وبينما أنا أقف أنظر للوافدين إلى المقبرة إذ بروحي بدأت تنجذب وتنجذب وأنا أحاول التّمسّك في أغصان الأشجار أو في لوح القبور، لكنّي أنجذب بكل بساطة، فجأة وجدتني واقفا على رأس قبر محفور، وجسدي ملفوف في كفن أبيض، ومجموعة من عائلتي يضعونني في القبر بتاني وبدأ أبي وعمّي يردمون ذاك القبر بالتّراب وما إن غمر حتى سمعت حديث الإمام يعظ ويوقظ ويحي قلوب النّاس ويذكّرهم بالموت والحساب والعقاب والمغفرة والثواب، فزادت حسرتي على أيام أفنيتها في معصية الله وخانتني نفسي أن

تتوب.. فجأة عمّ الصّمت فعلمت أنّهم انتهوا من الوعظ وبعدها بدأت الأرجل في التحرك وغادروني وتركوني وحيدا في ظلمة القبر؛ لا والد ولا ولد ولا حبيبة، وأم ولا أحد إلّا جسد وروح تطوف حوله، وبكيت على نفسي ولمتها، وبينما أنا في غمرة وحسرة حتى أحسست بيد تقلبني ونهضت ودمع العينين يسيل، قبّلت يدي أمّي ورأسها وفرحت فرحا شديدا لأنّي لمستها وقمت أصلّي بإذن الله.

لكن يا ترى كيف هي تلك الأحوال؟ وهل فكرنا في ما سنؤول إليه؟ تكلمت ولم أنصف حقا ولكن أظنّ أني أردت التفكير في الموت، فالحزن والأسى لن يبقى طول الأمد لكن البعث والحساب أمران من عند الله غيبيان يعلمهما وحده، والعقاب والجزاء بيده وليس القبر إلّا منزلة من منازل الآخرة لا نتسابق إليه ولكن الموت بأجله من يحتّم علينا مغادرة الحياة، نسأل الله حسن الخاتمة والجنّة وما قرب إليها من قول وعمل بلا حساب ولا سابق عذاب.

مـــها

في أرض فلسطين وبالتّحديد جنين تعيش مها رفقة عائلتها العم محسن وأم حسن وحسن، عائلة من عائلات فلسطين التي تعانق الحياة وتزهد في البقاء، عائلة من العائلات البارة بالرض المقدسة التي تسقيها من دمها، تتبادل مها مع أمّها الضحكات وهي تقص عليها ما جرى لها في الثانوية، والأم تبدي اهتمامها في حين أنّ قلبها على ابنها يحترق، إنّها تخاف عليه من ذاك العدو، وهي تقطع الخبز بالسكين، تنظر تارة إلى شفاه مها وهي تتحدث وتفكر"هل يا ترى سيكون لي حظ من رؤيتي أحفاد ابنتي أم أنّها ستراني في الكفن قبل هذا" ومها الفتاة الشابة تواصل الحديث أنّه عنفوان الشباب، في كل الوطن العربي ترى الشباب نضرا أخضرا، لكنه ما يفتئ أن ييبس تحت حرارة الضغط والحصر في كل المجالات، ففي فلسطين ينحصر شباب العرب بين عقلية العرب وحرب الصّهاينة، لكنَّ مَهَا لم تكن كبقية الشّباب، لديها هدف سطرته لحياتها ولحقها كفلسطينية، تقول مَهَا أنّها تريد أن تدرس حتى تظنّ أنّها اكتفت وبعدها تعلم الناس عن الحق الفلسطيني.

في هذه المرحلة كانت مها تنتظر أن تعلق النتائج في حرم الثانوية لتنتقل إلى الجامعة، إنّها فتاة شغوفة كلها أمل

وتفاؤل، مها تلك الفتاة الجميلة، عيون عسلية، هي ليست بالسمراء ولا البيضاء لكنها تحمل في وجهها تربة الخليل وحماس نابلس و صمود جنين، طويلة كطول هامة فلسطين، فتاة من عرين الأسود، وقد تقاربت الأيام وتسارعت الساعات، ولم يبق بين النتائج ومها إلّا غمضات جفون.

من أدب مها أن كل جيرانها يعرفون ذاك الخلق فيها، حياؤها وحشمتها، ليست هكذا فقط مع من في الشارع لكن مع أهلها وبيتها كذلك أيضا، الساعة الثامنة والنّصف مساء والغد هو يوم ردّ النتائج، ولاتزال مها تعد العشاء مع أمّها، والأم تحاول جاهدة أن تريح ابنتها، لكن مها ليست تلك الفتاة التي تعودت على الجلوس في الكرسي والتّحليق على القنوات الفضائية ولم تتعود أن تترك أمّها مشغولة بينما تلاعب أزرار الهاتف، ولم تكن لتجعل من الانترنت همها الوحيد ودراستها سبيل نجاحها ومُسَطر هدفها.

وأعدت تلك الأمّ الفلسطينية طاولتها، وزخرفتها بأنواع المأكولات، وسلمت زيجاتها إلى مها حتى تضع لمستها فيها، وبدى على وجهها ذاك الخوف من نتيجة الغد، وأم حسن تعبد الطريق وتسدّ الثّغور حتى تنسى مها ما ينتظرها، دخل العم محسن متهلل الوجه سعيدا فسلم على أهل الدّار، فعانقته مها بكل حنان وحب، فمن قال أنّ البنت بنت أمّها فلا أساس له في ذلك، فإنّما البنت لأبيها، وأجلسته بجانبها حتى دخل عليهم حسن مسلما، وهو يرتب صحون

الطعام بعينيه، وجلسوا كلهم إلى الطاولة، أمسك حسن أداة تحكّم التلفاز وبدأ يتجول بين القنوات، أخبار وحوادث أفلام ووثائق، حتى أوقفه العمّ محسن على قناة ما"..فيما قتل فلسطينيان برصاص جنود الاحتلال شرقي رام الله.." هكذا رنّت العبارة في آذانهم، كيف أنّ حياة الفلسطيني رخيصة في عيون هؤلاء الوحوش، كيف يمكن أن يكون ذلك الفلسطيني الأعزل إرهابيا بينما يرمى بالرصاص، شعر العم محسن بالغضب وطلب من حسن أن يغيّر القناة، فتسمرت مها في مكانها تنظر بعينيها إلى والديها وأخيها، وكأن نظراتها تعانق أحلامهم بينما أحلامها تائهة بين التحقق والاندثار، ولكنّها مؤمنة بأن كل ما سيحدث لها لديه معنى وجيه في حياتها...، وبينما هذه العائلة في هدوئها إذ تسمع قرع الملاعق بالصحون وصوت التلفاز الخافت، قالت مها بصوت ملؤه الحياء والوقار: "أبي، أمي وأخي أريد أن أخبركم شيئا"، وكأنما أرادت إعلان شيء ساخن، نظرات العائلة إلى مها تفسر خوفهم مما ستقوله، هل ستخبرهم أنّها تتوقف عن الدراسة؟ أم أنها تريد مالا لإكمال دراستها؟ ماذا يجول في خاطرها؟ فابتسم حسن وحثّها على التكلم، فقالت: "أريد الدّراسة في جامعة القدس". حمل حسن ملعقته وبدأ في الأكل ولم يجبها، وبدت نظرات الأمّ الخائفة إلى مها وتمتمت بشفتيها، وقال الأب: "القدس.. أليس كثيرا يا أستاذة". حينها ترك حسن الملعقة قائلا: "خلصنا الكلام عن القدس لدينا هنا في جنين الجامعة الأمريكية العربية سجلي فيها

واختصاصك متوفر العلوم والأدب !". نهض أبو حسن وهدّأ الوضع وبيّن للإخوان أن كلّ شيء سيأتي في وقته وأخبر مها أن تعدّ نفسها للجامعة إذا فازت وأن لا تيأس فالخسارة لا تعني الهلاك.

صباح الغد، يوم النتائج، كل ذلك الخوف والشّك بدأ يثور ويظهر على محيّا مها، وأم حسن ترشها بالماء وتدعو لها، مرّ بها أبوها وحثّها على أن لا تستسلم وأنّ الهواجس من الشيطان ويجب أن تتحرّر مما يشوب راحتها، ومرّ أخوها فبرّر موقفه من الأمس وعانقها ثم خرج إلى العمل، وبانت الطريق لمها نحو الثّانوية تنتظر نتائجها.

صباح زكي، نعيم ندي، أشجار محفوفة على الطريق، تلك الأوراق الرطبة تلاعب

الأغصان العذبة، ترسم على وجه مها ابتسامه، نسيم يهب تارة ويخفت أخرى يمرّ على محيّاها فتحييه تحية فلسطينيّة من جنين، إلى أرجاء الوطن الجريح، الجارة أم سعد في الطريق تسلّم على مها وتدعو لها، وليس ببعيد تمر إلى دكّان العمّ عزرا تشتري علكة، على وجهها تلك النظرة وفي عينيها تلك النّظرة إنّها مها الفتاة الفلسطينية، جريحة لجرح لا يبرأ حتى يختفي الاحتلال، وقويّة لأجل الأقصى لأجل القدس ولأجل كل شبر من الأرض المطهرة، مازالت الطريق لم تنتهِ والثّانوية في مرمى البصر، تتثاقل رجلاها وتخشى من نتيجة ستلقاها، مها تكاد تصرع من الجزع، ولكن الأمل هو ما يصنع العظماء، والفشل ما هو إلّا نجاح لم يفلح، في

طريقها تفكر، أدرس الادب وأصبح صحافية وأنشر حقيقة الوضع الفلسطيني، وأؤلف الكتب والأشعار لأجل بلدي ليصبح حرّا كالأطيار، تفكير راقٍ جدّا أيّتها الفتاة بأن تدرسي لأجل الوطن، حرقتك تلك تتحول إلى رماد ولكن إذا دفعتها بالأمل ستصبح نبتة خضراء، الجنّة تبتسم في وجهك وانت تبادلينها الابتسامة، وصلت مها أمام الثانوية حشد وجمهور غفير، نظرات متعبة وبكاء صراخ، فرحة، سرور، سجود وتكبير، تقترب تلك الفتاة المسكينة من سبورة سوداء كليل مظلم لا نور فيه، فترى تلك النّظرة العارية من الأحاسيس تتحول إلى دمع وفرحة ملأت الأجواء، نتيجة مشرفة لمها تعانق صديقاتها وتفرح وسط إخوانها، أبهرت الحيّ بثورتها، فجأة القمر يجلي ظلام الليل، وأصبحت سعيدة الحظ تلك الفتاة، يا سعد أمك بك، يا سعد جنين وفلسطين، يا سعد القدس، بخطى متسارعة، كغزالة صهباء، تشق الريح بهائها، تغرد الطير لها في يوم لا يسر الطير، وتنحني الأشجار لها في طريق العودة، على مشارف المنزل، ماذا ستقول لأمّها فزت أم ربحت؟ وكيف سيكون شعور أبيها؟ يا ترى هل سيسمح لها أخوها بالذهاب إلى القدس؟ مسائل بالنّسبة لها ستطرح، ومشاكل ستحل وبها تفرح، لكن على بعد النّظر، ترى مها سيارات الاسعاف تتلاقف الموقف، دخان ونيران وجنود الاحتلال، يا لنهار أسود من سوء المنظر، ماذا حل في الحيّ؟ ماذا جرى؟ استوقفها جنود الاحتلال وطلبوا بطاقات التّعريف وفي لحظة ما نظرتُ نظرة فشاهدت أباها العمّ

محسن مقيّدا إلى السيّارة، فصرخت صراخا وضربت الجنود وانطلقت إلى أبيها، في لحظة هستيرية وجنون الفقدان تلقي بما لديها على أولئك الأوغاد " ماذا تريدون؟ سرقتم الوطن، الحق، أتركوا أبي" والأب ينظر إليها من شباك السيارة وكأنّه يقول: واصلي المسيرة يا بنية فأنا الآن لا صوت لي، وفجأة تخرج أم حسن من الباب وتنادي يا حثالة يا كلاب موتوا.. بندقية قديمة - كنز الأجداد- تخرج بها تلك الأمّ وتطلق النّار، رباه إنّ الفلسطينيات شوكتهن أقوى من بقية رجال العالم، فما بالكمّ برجال فلسطين، صدقت حين قلت يا أبا عمار "يا جبل ما يهزك ريح" إنّهم الجبال، وليس الصهاينة ريحا أبدا، ضربت بالرصاص فسقط أحد الأشرار لينهال عليها بقية الجرذان طلقا بالرصاص حتى أردوها شهيدة أمام عيني مها، وهي واقفة لا تحرك ساكنا،هذا هو الأمر، لن تبقى الفرحة، يسرقها الاحتلال كل مرة تنجو فتفقد أحدا، تتكلم فتفقد حريتك، حصلت مها على النجاح ففقدت أمّها وأسِر والدها، انتهى كل شيء فجرى الجيران من هنا وهناك يحملون عبء مها، ولكن صك فاها، وبلعت لسانها، وجمعت كلماتها في جوفها، جفّت الأقلام فلا كلام بعد هذا المآل، يأتي حسن جاريا ودمع العين يدمي قلبه يحضن الأخت المنكسرة، رأت موت أمّها وأسر أبيها بعينيها، وهي الفتاة بلى ستنكسر، وبنظرة حزن والأسى يغمرها تقول لأخيها:" لقد نجحت بامتياز يا حسن" فينفجر بكاء وهو يبارك لأخته ويقول: "سعيد لأجلك يا أختي ما أسعد هذا

اليوم." وتقوم مها القويّة وتأمر أخاها بأن يقبر أمها، وتنظر إليه متسائلة سأدرس في القدس هل توافق؟ وبكل حسرة يوافق ويؤازر، كل يوم شهيد في فلسطين، شعب أخوه شهيد، وأبوه شهيد، وجدّه، وعمه، وأخته، وخالته، وأمه، وجارته، وجاره، وابنه، وحفيده وبنته شهداء، شعب شهيد يمشي على الأرض، رحمك الله يا عثمان بن عفّان، شهيد يمشي على الأرض، رحمك الله كادت تصير سنة من بعدك فأرضنا في فلسطين تحتضر، مها القويّة نسيت الألم وحزمت أمرها من أوّل لحظة لها، لا يجب على الحزن والأسى أن يهزّها، هكذا أحببنا فلسطين؛ ليس لأنّهم أرخصوا الحياة فداء لله والوطن فقط وإنّما كذلك لأنّهم شهداء علينا بأنّهم صامدون وعلى العهد باقون، أمّا نحن فمنذ زمن بعيد نتوعد الصهاينة ونتعهّد للفسطينيين بأنّ صلاح الدين سيأتي يوما ما، ولكن صلاح الدين مات وقد مات من هو خير منه ولم يعد، وإنّما يجب أن نكون نحن عمر وصلاح الدّين ونكون نحن فلسطين. انتهت الحكاية ولم تنته الآلام، يجب أن نحسّ بألم الأمّة حتى يحيا الضّمير...

انتهى.